تعزيز اليقين

بجملةٍ من البراهين!

هدية لكل ملحد ومتشكك وطالب للحق

تأليف

محب بن مسكين

الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدّمة

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد؛

قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [الجاثية:٢٧].

لن ينتهي الباطل إلى قيام الساعة، وستظل له صولةٌ وجولة، وصحوةٌ وغفوة، إلى أن يرث الله الأرض ومَن عليها .

وستبقى كل التأويلات الكفرية مفتوحةً لينحاز البطّالون إلى باطلهم، وينحاز الذين يتبعون الزيغ إلى زيغهم وينحاز الذين يتبعون ما تشابه منه إلى ما تشابه منه ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ [آل عمران:٧] .

وينحاز الصادقون في تجردهم للحق إلى صدقهم ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ [المائدة:١١٩].

ومن رحمة الله على العباد أن الكفر سيظل إلى قيام الساعة مرجوحًا ضعيفًا، يتجشّم له البطالون تأويلاتٍ تلو تأويلات، ويحتاجون له كوماتٍ من المعالجات.

وبعد كل هذا العناء ومع أول لمحة صافية من أوليات العقل وبديهيات النظر المجرد يذوب الباطل كما يذوب الثلج وينهار بكل جعجعته كما تنهار كل السفسطات عبر التاريخ ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً﴾ [الرعد:١٧] .

فلن ينتصر الباطل على الحق في جدالٍ منصفٍ إلى قيام الساعة ﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء:٨١].

﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء:١٤١].

وقد أردت في هذا الكتيب الصغير أن أحشد مجموعةً من الأدلة اليقينية على صحة الرسالة وثبوت النبوة، وقد قدّمت الكتيب بفصلٍ شيقٍ بعنوان: "إما الإيمان أو الفوضى" حتى يكتمل المراد منه!

وفقنا الله وإياك للخير والحق

الفصل الأول

إما الإيمان أو الفوضى

Creed or Chaos

"الإلحاد ليس تصورًا وجوديًا كما تتوهم، بل هو خيالٌ، تبرره شبهةٌ طارئة وتبقيه شهوةٌ جامحة".

إما الإيمان أو الفوضى

Creed or Chaos

يعترف عرّاب الملحدين في العالم ريتشارد داوكينز Richard Dawkins ضمنيًا أن الإيمان بالرسل والرسالات شرطٌ جوهري لمعرفة الخير والشر والصواب والخطأ.

يقول داوكينز: "من الصعب جدًا الدفاع عن القيمة الأخلاقية المطلقة على أرضية أخرى غير الدين"[١].

فداخل أرضية الدين وحسب يمكن استيعاب معنى الإنسان وتحليل ظاهرة وجوده، والتأسيس لقيمته وأخلاقياته ومبادئه.

وخارج الدين يتحول الإنسان إلى مجموعة من الذرات المتلاحمة بلا معنى، والتي تتحرك بلا غاية وترتطم بلا هدف.

فالعماء الكامل يصم حالة عدم الإيمان والذين لا يملكون نور الإيمان بالدين لن يستطيعوا أن يوجدوه ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

فبدون الإيمان بالرسل يتسمم كل شيء.

ويفقد الوجود بأكمله معناه.

ويصبح من العسير جدًا انتقاد أفعال شخص مثل هتلر.

وفي هذا يعترف ريتشارد داوكينز قائلًا: "داخل العالم الإلحادي المادي الحتمي لا يمكن تخطئة هتلر"[٢].

---

(١) It is pretty hard to defend absolute morals on grounds other than religious ones. (The god Delusion, p.٢٣٢)

(٢) What's to prevent us from saying Hitler wasn’t right? I mean that is a genuinely difficult question.

فالإنسان من منظور المادة، ومن منطلق الإلحاد مجرد نمط مادي ثلاثي الأبعاد لا قيمة لوجوده ولا غاية لسعيه.

فلا تختلف أفعال هتلر الإجرامية عن أفعال المصلحين، فالكل بلا غاية!

ولذا لك أن تقولها مدويةً أن: أصل النور هبة إلهية تقترن بالإيمان، ولن تستطيع كل فلسفات العالم أن تؤسس لومضةٍ من نور، ولن تستطيع كل ماديات العالم أن تؤسس للمحةٍ من قيمة الإنسان أو غاية وجوده.

ولن تستطيع كل محاكم العالم أن تكبح جماح جريمةٍ واحدة على أساسٍ عقلي أو فكري!

فالإنسان بالمنظور المادي هو جُرم ناتج عن تجمع ذرّي لا ينفصل عن المنظومة المادية ولا يتمايز عنها ولا تتحق له غاية بوجوده، وتفقد حتى كلمة "الغاية" معناها!

يقول الملحد اللاأدري الشهير كارل ساغان Carl Sagan: "الإنسان... هو نتاج نفس القوانين والثوابت التي كانت لازمة لصناعة حجر"[١].

ويصف الأستاذ بجامعة هارفارد جورج سيمسون George Gaylord Simpson منتهى تصور الإلحاد عن الإنسان فيقول: " الإنسان ما هو إلا نتيجة عملية طبيعية غير هادفة، لم تكن تضعه في الحسبان"[٢].

---

http://byfaithonline.com/richard-dawkins-the-atheist-evangelist/

(١) Essentially the same laws and conistants are required to make a rock

Carl Sagan, Pale Blue Dot: A Vision of the Human Future in Space.

(٢) Man is the result of apurposless and natural processthat didn’t have him in min.

-وجورج سيمسبون هو عالم الحفريات وأحد أبرز دعاة التطور على الإطلاق!-

لم تكن المادة لتضعنا في الحسبان!

لأننا طبقًا للرؤية الإلحادية حصيلة قوى طبيعية عنيفة، ولم نكن مُصممين البتة لنصير في الواجهة!

وفي حقيقة الأمر لا يمتلك الإلحاد جوابًا أفضل من ذلك.

ولن يستطيع الملحد أن يستمد قيمةٍ لحياته في إطار تلك الرؤية المادية للوجود.

يقول التطوري اللاأدري الأشهر ستيفن جاي جولد Stephen Gay Gould: "نحن هنا لأن طائفة غريبة من السمك كانت زعانفها ذات تركيب خاص مكنّها أن تتحول إلى أرجل.

لا يوجد جواب أسمى من ذلك "(١) .

بالفعل إلحاديًا لا يوجد جواب أسمى من ذلك.

فمن نسي الله نسي نفسه ونسي قيمته ونسي معنى وجوده ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ﴾ [الحشر:١٩] .

سبحان الله!

إنها سنة كونية لا تتخلف!

سنة كونية تتبع كل كافر يريد أن ينسى الله؛

فإذا به ينسى نفسه.

Simpson, George Gaylord. ١٩٧٠. *The Meaning of Evolution.* New Haven, CT: Yale University Press, P.٣٤٥.

(١) The meaning of life: reflctions in words and pictures on why we are here, ١٩٩١, p.٣.

وهكذا ففي الداخل الإلحادي لا يستطيع الإنسان أن يستمد معنىً للقيمة ولا للأخلاق ولا للغاية.

وأنت إذا أردت أن تُدمر معنى وجود الإنسان في هذا العالم وتُدمر مبادئه ومطلقاته فلن تفعل أكثر من أن تنزع غاية وجوده عنه، وتحاول أن توهمه بعبثية وجوده.

ولم يفعل الإلحاد غير ذلك!

يتحدث الملحد ريتشارد داوكينز بفخر عن شخصٍ ما أخبره أنه لم ينم لثلاثة أيام متواصلة، بعد أن اطلع على النظرة الإلحادية للوجود التي يبثها داوكينز في كتبه، فقد اكتشف ذلك الشخص –والكلام على لسان داوكينز– أن الحياة مجرد خواء بلا معنى! (١)

هذا ما يعِد به الإلحاد.

وفي هذا الإطار الذي أفقد الوجود معناه؛ تصبح أكبر الجرائم بلا معنىً، ويتحول الإفساد في الأرض إلى حركات ذرات متراطمة بلا غاية. يقول آرثر ألين ليف Arthur Allen Leff أستاذ القانون بجامعة يال بالولايات المتحدة الأمريكية: " لا توجد طريقة لإثبات أن حرق الأطفال بقنابل النابالم هو شيء سيء" (٢).

فإذا كان الإله غير موجود فإحراق الأطفال بقنابل النابالم قضية نسبية حضاريًا.

---

(١) One man said he didn't sleep for three nights after reading *The Selfish Gene.* He felt that the whole of his life had become empty, and the universe no longer had a poin.

Reinventing the Future, p.١١٢.

(٢)there is today no way of ‘proving’ that napalming babies is ba Economic Analysis of Law: Some Realism about Nominalism (١٩٧٤).

إذا كانت مقدمتك منطقية فالنتيجة أيضًا منطقية.

ولا تستطيع من داخل الإلحاد أن تصِم المقدمة أو النتيجة بالفساد!

وتوكيدًا على ما سبق يُلخِّص الحائز على نوبل في الأدب تشسلاف ميلوتش Czeslaw Milosz في مقاله "مفاتن العدمية الحذرة The discreet charms of nihililsm" الموقف على النحو التالي: "الإلحاد أفيون الشعوب"؛ فاعتقادك بعدم الحياة بعد الموت هو أكبر مخدِر للقيم.

فالإلحاد يقدم عزاءًا ضخمًا لكل المجرمين والقتلة والزناة بأنه لا بعث ولا حساب!

وداخل هذا التخدير المُتعمد للقيم يصبح الاغتصاب عمل محايد. وهذا توصيف ريتشارد دواكينز لجريمة الاغتصاب فيقول: "اعتقادك بأن الاغتصاب خطأ أمر اعتباطي تمامًا"[١].

وقد أصاب ريتشارد داوكينز؛ فمِن أين لك أن الاغتصاب خطأ والتعفف أفضل؟

وعلى أي مستندٍ تعتمد خطأ فعلٍ أو صواب آخر؟

إذا لم تكن هذه هي الفوضى فما هي الفوضى؟

ومن أجل ذلك!

نقول أن: تصور وجود الإله والإيمان بالدين ليس حاجة مشروعة بل حاجة مُلِّحة، فالعقل هنا لا يبتدع فرضية وإنما يُعبر عن حاجة ضرورية ضرورة الماء والهواء بل أولى منهما.

فمعرفة الله هي مقتضى عقلي من الواقع المادي ذاته، ومن واقع طبيعتنا نحن كبشر.

إننا نطلب شيئًا لا يستطيع أن يلبيه أي شيءٍ في هذا العالم.

إنه نداء المقدمة السماوية التي جئنا منها يومًا ما!

---

(١) Your belief that rape is wrong is an arbitrary conclusion From an interview with Justin Brierley of unbelievable.

إنه نداء القيم الأخلاقية التي نُسلِّم جميعًا بصحة مقدماتها!

إنه نداء الفطرة.

تلك الفطرة التي نعلم ونوقن من خلالها بوجود الخير والشر والصواب والخطأ والقداسة والنجاسة!

إنه نداء الإنسان الذي لن يستطيع أن يتفهمه الإلحاد.

ذلك الإنسان الذي فشلت وستفشل كل الحلول لتحليل ظاهرته خلا الإيمان!

إما الإيمان أو الفوضى

Creed or Chaos

لا يحتمل العالم بديلاً ثالثًا.

تدّبر عالمًا بلا دينٍ ولا إيمانٍ بالخالق.

تدّبر عالمًا بلا بعثٍ ولا حساب!

إذا لم تكن حياة بعد الموت فكل هذا الجمال في الحقول والأمواج والأزهار هو رعب[١].

إن الرؤية الإلحادية تُفقد العالم المعنى وتُبدد الجمال وتقتل القيمة وتُحول أروع الأشياء إلى رعب.

الرؤية الإلحادية تجعل كل الوجود بلا لزوم.

وتجعل كل الغايات الجميلة سخف وهراء!

وتتحول أجمل الأحلام الفردوسية إلى كابوس مرعب.

ويصبح الوجود كله بلا معنىً.

يُعبر عن هذه الحقيقة المزعجة الملحد الوجودي جان بول سارتر Jean-Paul Sartre في روايته غثيان كالتالي: " لا داعي للوجود على الإطلاق وليس للحياة معنىً، فأنا قد ظهرت صدفةً كجرثومةٍ لم يكن لي أن أوجد على الإطلاق"[٢].

وهكذا يرسم سارتر بريشة الإلحاد معنى الوجود!

---

(١) من رواية ريش الحمام pigeon feathers

(٢) جان بول سارتر، الغثيان. ((Jean-Paul Sartre, Nausea (novel)

فنحن شيء عرضي تافه في هذا الكون مثل ذبابة مايو mayflies التي تظهر وتختفي في طي النسيان؛ كما يصفنا داعية المذهب المادي الكاتب شيت رايمو (Chet Raymo)(١).

وكل أهدافنا التي نتصور أنها أهدافًا سامية، هي مجرد وهم؛ كما يقول الملحد الشهير ريتشارد داوكينز (Richard Dawkins)(٢).

أما الرؤية الإيمانية فهي على المقابل من ذلك تمامًا تجعل العالم مفهوم والحكمة مدركة والبلاء مقبول والكد مجبور.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق:٦].

فالإحالة إلى الإيمان هي شرط فكري وعقلي لاستيعاب المعنى والغاية ومبررها المعطى المادي نفسه.

الإحالة إلى الإيمان مبررها ظاهرة "الإنسان".

ذلك الكائن الذي لا يمكن استيعابه في إطار المادة ولا الحتميات الصارمة التي تحكمها!

---

(١)We are small, contingent parts of something that existed long before we appeared on the scene. . . . We are as incidental to the cosmos as are ephemeral mayflies to the planet Earth. At first glance, this was shattering news. Indeed, the majority of us have not yet come to terms with it. . . . *Our lives are brief, our fate is oblivion*.

Raymo, Chet. ١٩٩٨. *Skeptics and True Believers.* New York, NY: Walker, p.٢٢٢.

(٢) ""has shown higher purpose to be an illusion.

A Scientist's Case Against God,"

ذلك الكائن الذي أقدامه مغروسة في الوحل، بينما يتطلع إلى السماء.

ومن أجل ذلك يصبح الانتقال من عالم الحس –العالم المادي- إلى عالم المُثُل –العالم الإيماني الغيبي- هو مقصد الوعي الإنساني في حال أراد استيعاب ذاته، ولذا فقد ارتسمت صورة المفكر في كل الحضارات بالشخص المنعزل عن المجتمع المادي، لأنه مشغولٌ بالكليات.

وقد كانت وما زالت المعرفة الماورائية عند المفكرين أعلى المعارف وأشرفها، لأنها النوع الوحيد المنوط بتفسير القضايا الكلية والوجودية والأسئلة الكبرى، فنجد ديكارت مثلًا يقول: "الفكر الإنساني شجرة جذورها الماوراء وجذعها الفيزياء وأغصانها بقية العلوم"[(١)].

فأصل الإحالة إلى الإيمان هو أصل عقلي، هدفه الأسمى بحث الوجود الحق –الغيب-.

إن الحقيقة التي يُسلِّم بها البشر الآن أنه: لا حقيقة في الخارج المادي المستقل، ولا يمكن ضبط الحقيقة بدون دين واستقاء من الما وراء، ولا يمكن التأسيس للحقيقة أو ضبط المعرفة أو تقييم المعنى بلا دين.

فأنت بلا دين تتحول إلى كتلة خلايا ترتطم على جدرانها أيونات صوديوم وبوتاسيوم.

وتصبح نمط مادي من حساء سيتوبلازمي *Cytoplasm* زلالي بلا حدود ولا إطار.

فما الإنسان إلا كمبيوتر من اللحم، كما يقول شيت رايمو –سابق الذكر-[(٢)].

---

(١) Descartes, principes de la philosophie, p.٢٦

اقتباسًا من" في دلالة الفلسفة وسؤال النشأة، د. الطيب بوعزة، ص٧٨"

(٢) merely a computer made of mea

Raymo, Chet. ١٩٩٨. *Skeptics and True Believers.* New York, NY: Walker, p.١٨٧-١٨٨.

بل ويَعتبِر رايمو هذه القضية –كون الإنسان مجرد كمبيوتر من اللحم– على أنها أقرب إلى البديهة لدى الملاحدة (almost a truism)[١].

وفي هذا الإطار يصبح من العسير الدفاع عنك.

ويصبح كل خطأ صواب، وكل صواب خطأ؛ فلا معنى لا للخطأ ولا للصواب.

يقول الملحد ريتشارد داوكينز مُلخصًا الوضع: "الكون في حقيقته بلا تصميم، بلا غاية، بلا شر ولا خير، لا شيء سوى قسوة عمياء لا مبالية"[٢].

وداخل هذه الصورة التفكيكية المرعبة يصبح قتل البشر مباحًا. ويصبح فعل كل الجرائم شيئًا محايدًا!

ويصبح إعلان الملحد داوكينز عن أن : "قتل الأجنة عمل محايد". أمرًا متوقعًا[٣].

فالجنين طبقًا لداوكينز كتلة من الخلايا بلا قيمة

وتتطور رؤية داوكينز أكثر نحو استيعاب الإلحاد فيقرر أن: "أكل لحوم البشر لا مانع منه بشرط أن يكونوا من الأعداء لا الأصدقاء"[٤].

---

(١) المصدر السابق ص ١٩٢.

(٢) The universe we observe has precisely the properties we should expect if there is, at bottom no design, no purpose, no evil and no good, nothing but blind, pitiless indifference.

River out of Eden, p.١٣١-١٣٢

(٣) The god delusion, p.٢٩٧, ٢٩.

(٤) - Selfish Gene, p. ٨.

ويظهر زميل داوكينز ورفيق كهنوته الملحد سام هاريس Sam Harris الذي يتطور أكثر وأكثر في ابتلاع الإلحاد فيقرر أنه : "لا مانع من قتل الأصدقاء والأعداء طالما يحلمون أفكارًا مخالفة"(١).

ولا مانع من إبادة المسلمين بقنبلةٍ نووية تستأصل شافتهم إلى الأبد –كما يقول المجرم بالحرف–(٢).

هذا هو الإفراز الإلحادي المتوقع!

هؤلاء هم أعمدة الإلحاد في العالم.

الحمد لله على نعمة الإسلام!

كفانا الله شرّهم!

وهكذا داخل الإلحاد يصبح الإنسان ممزقًا في عالمٍ لن يصبو فيه إلى الحقيقة يومًا ما!

ولن يدرك الإنسان حقيقة وجوده إلا داخل رحابة الإيمان.

ففي داخل الإيمان يستطيع أن يستوعب الحس الأخلاقي والحس الجمالي والحس الفطري والحس الوجداني والحس القيمي والحس الديني، ويقبل بالتسليم لمعطيات المعنى والقيمة وهكذا فحسب يعود الإنسان إنسانًا مرةً أخرى كما بدأ رحلة صراعه الأولى مع طموحه البروميثيوسي Prometheus –التمرد على الخالق– وتطلعه لتحديد قدَره بيده هو لا بيد خالقه.

إن هذه الملحمة الكبرى –ملحمة البحث الإلحادي عن الغاية في إطار المادة– تُذكرنا بالقصة القديمة لذلك الرحالة الذي رأى رؤيا أنه سيجد كنزًا عظيمًا يومًا ما تحت الأرض!

---

(١) -Some propositions are so dangerous that it may even be ethical to kill people for believing them.

The End of Faith, p.٥٢

(٢) -Harris, S. (٢٠٠٦) the End of Faith, the Free Press, P.١٢٩.

وظل الرجل يجوب البلاد ويقطع الوديان ويخرق الفجاج باحثًا عن كنزه، وبعد أن مضت السنوات عابثًا في سعيه وبعد أن أرهقته الأيام عاد إلى بيته منكسرًا مهمومًا حزينًا يصارع العبثية والشؤم والحسرة، والضياع واللامعنى واللاغاية!

وبينما هو كذلك إذ سقط القدح من يده على الأرض فأحدث رنَّةً عظيمة!

فحفر بيده ليجد كنوزًا لا أول لها في قعر بيته.

لقد كان الكنز الذي يبحث عنه!

إن الكنز الذي يبحث عنه الإنسان لا يوجد في الخارج المادي، ففي العالم المادي لن يجد إلا ما هو مادي، لن يجد إلا غذاء جسده، أما غذاء روحه فليس من هذا العالم!

ولن يصبح الإنسان إنسانًا ولن يؤسس لقيمته ومبادئه وأخلاقياته إلا في ظلال القيمة والمعنى والتي لا تمت إلى هذا العالم بصلةٍ!

إن المعنى يوجد داخلك أنت. في فطرتك، وصبغتك التي صبغك الله عليها!

﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ﴾ [البقرة:١٣٨].

إننا لو كنّا أبناء هذا العالم الخُلص، لما شعرنا بالمعاناة ولا الاغتراب ولا بحثنا عن القيمة ولا كان لهذه الكلمات معنىً.

في رواية البؤساء لفيكتور هوجو Victor Hugo يتوقف الزمان عند تلك اللحظة التي يلقي فيها الضابط جافير Javert بنفسه في نهر السين حين أطلقه الجاني جان فالجان Jean Valjean بعد أن قَدر عليه.

إن قرار الضابط هو نتيجة صراع نفسي لا يُحتمل، فلم يكن يصدق أن هذا المجرم أكثر عاطفةً وحنانًا منه، وأنه يقدر على العفو ويحب العفو ويعفو!

هذا الصراع النفسي الذي دار داخل نفس الضابط لا معنى له إذا لم يكن لنا روح!

إننا لو كنّا أبناء هذا العالم لما بدا فيه شيء نجس أو طاهر، إن وجودنا يستمد معناه من عالمٍ آخر.

إننا نوقن وندرك أننا دخلنا هذا العالم برأس مال قيمي معرفي أخلاقي مبدئي هائل.

وليس في هذا العالم ما يحلل شيئًا من ذلك، ولا يبرر شيئًا من ذلك!

إننا أبناء عالمٍ آخر نقتبس منه المعنى والقيمة والهدف والغاية، ونرد إليه مطلقاتنا التي نؤمن بها ولا نجد لها صدىً في عالمنا الخارجي!

إن الصراع الأزلي بين الضمير والمصلحة، هذا الصراع لا يوجد في هذا العالم المادي ما يبرره، فلا يعرف العالم المادي الخارجي سوى المصلحة، أما الضمير فهو خاصية محايثة – مرتبطة– للإنسان، كما أن القيمة خاصية حصرية للروح، إن معنى الإنسان الحقيقي لا معنى له إلا بمقدمةٍ سماوية؛ هذا هو التنظير الأخير لظاهرة وجودنا، إن الإحالة إلى الإيمان هي مصدر اقتباس وتحليل وتعريف وتفسير الوجود الإنساني كله.

!فإما الإيمان أو الفوضى... ولا يوجد بديل ثالث

الفَصْلُ ٱلثَّانِي

ظاهرة النبوة

"لولا النبوات لتحولت كل الأحلام والقيم والمُطلقات الأخلاقية إلى كابوسٍ مرعب"

ظاهرة النبوة

النبوة والعقل!

النبوة هي وسيلة المعرفة الصحيحة بالله ومعرفة مراده من خلقه، ولولا النبوة لما حصلت الهداية ولا حصلت معرفة غاية الوجود ولا المصائر بعد الموت ولا معنى الدنيا ككل!

لكن بعض الملحدة يزعمون أن العقل قد يُعوَّل عليه في الوصول إلى بعض المعاني الكلية للوجود.

وهذا خللٌ ظاهر فالعقل لا يستقل بالوصول إلى الهداية، وإلا ما اختلف المُعوِّلون على العقل وحده فهم مختلفون فيما بينهم أشد اختلاف.

فعندما تُرِك الناس للعقل آمنوا بالله وآمنوا بالأصنام والأوثان وعبدوا الملوك وألحدوا وصاروا لاأدرية في آنٍ واحد!

فمعطيات العقل متفاوتة للغاية وتخريجاته مزعجة ومُربكة لأبعد ما نتصور!

فالعقل البشري لا يملك أي عتادٍ حقيقي يمنعه من التورط في صناعة الخرافة والأسطورة والوهم والهلاوس وقبول كل ذلك واعتباره حقائق!

يقول د. ثامر غشيّان: "بدون العودة بالعقل إلى وظيفته الأصلية ضمن أُطر ومسلَّمات يُؤمِّنها الوحي ويُحدد أبعادها الكتاب، بدون هذه العودة فإننا نظلم العقل وندخله ميادين ليست ميادينه وحروبًا ليست حروبه ثم بعد ذلك نلومه ونغضب عليه إذا عاد خائبًا منكسرًا حزينًا "[(١)].

ثم تبّصر تاريخ الأمم وفلسفاتهم وثقافات المتقدمين والمتأخرين، وانظر هل وصلوا بالعقل وحده إلى نتائج مُرضية في مسألةٍ واحدة من المسائل الوجودية الكبرى –المسائل

---

(١) الفقرة من وحي كتاب"رسالة خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم، د. ثامر بن ناصر، مكتبة الرشد".

الوجودية الكبرى مثل: لماذا نحن هنا، وأين نحن إذا متنا، وماذا بعد الموت؟- أم عاد الجميع حائرين تائهين يترّصدون بابًا آخر يلِجوا منه لبحث الأجوبة؟

ألم يعترف ستيفن هاوكنج Stephen Hawking الفيزيائي الأشهر وفي أول صفحة من كتابه الأخير "التصميم العظيم the Grand Design" أن **الفلسفة قد ماتت؟**

لكن صراحةً الذي مات لم تكن الفلسفة، وإنما الاعتماد على العقل وحده في المسائل الوجودية الكبرى!

فالعقل بدون النبوات، كالعين بدون آلية الإبصار، وكالأذن بدون آلية السمع. ﴿ **وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ** ﴾ [الأعراف:١٧٩].

وقد حاول ديكارت Descartes (١٦٣٧) أن يصل بالعقل وحده إلى مفردات معاني الوجود فاستخدم وسيلة الشك المنهجي الجذري، واستطاع بهذه الوسيلة أن يهدم معتقداته في كل شيء حتى الأفكار المُجردة، ثم بعدها أسس لفلسفة الكوجيتو cogito–أنا أُفكر إذن أنا موجود – أيضًا باستخدام العقل.

ثم بعدها انهار هذا الكوجيتو على يد ديفيد هيوم David Hume أيضًا باستخدام العقل.

وظهرت فيما بعد الحداثة التي أسّس لها كانط Immanuel Kant والتي بدورها ذابت على أعتاب ما بعد الحداثة post-modernism.

فالعقل يبني ويهدم .. يرفع ويخفض .. يُؤله ويُوثن .

ولم يعد ثمة إمكان لتأسيس الوعي والقيمة والمعنى للوجود باستخدام العقل المفرد.

ولذا يقول الدكتور عبد الحليم محمود -رحمه الله- شيخ الازهر السابق: "فالدين سفينة والعقل لوح خشب وقلّ من نجا بلوح خشب "[١].

وقد كان أندريه جيد André Gide المفكر الفرنسي الشهير ذكيًا، فعندما طلب منه طه حسين يومًا أن يسمح له بترجمة أعماله إلى العربية؛ رد عليه أندريه جيد مندهشًا وقال: "يدهشني اقتراحك .. الإنسان المسلم يحمل من الأجوبة أكثر مما يثير من أسئلة "[٢].

فالعقل الذي يعرف صفات الإله ويعرف الرسالة الإلهية يجد الأجوبة عن الأسئلة الكلية. بينما الذي ينكر النبوات يطرح نسخًا لا نهائية للتصورات الوجودية -أي يستحيل أن ينجو ضمنيًا-.

ومن أجل ذلك يعترف الرازي في آخر مصنفاته بعد أن خاض في علوم الأوائل حتى الحلقوم، وتشّرب من الفلسفات حتى تضّلع ثم قال في النهاية: "لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي عليلًا ولا تروي غليلًا، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن ومِن جرَّب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي. فنهاية إقدام العقول عقال"[٣].

نعم نهاية إقدام العقول بلا بصيرةٍ من وحيٍ عقال!

فللعقول أقيسة لا نهائية لكل مسألة، وضروب متباينة متفاوتة. فكيف ينجو بعقله من رأى نسبية طرحه؟

يقول ابن قتيبة رحمه الله: "وقد كان يجب مع ما يدّعونه – في تقديسهم للعقل–من معرفة القياس وإعداد آلات النظر أن لا يختلفوا كما لا يختلف الحُسّاب والمُسّاح والمُهندسون، لأن آلاتهم لا تدل إلى على عددٍ واحد، وإلا على شكلٍ واحد، فما بالهم أكثر الناس اختلافًا؟

---

(١) انظر: "يوسف كرم: تاريخ الفلسفة اليونانية".

(٢) المراسلات مع أندريه جيد. رسالة من أندريه جيد إلى مترجم كتابه "الباب الضيق"، باريس في ٥ يوليو ١٩٤٥.

(٣) ثبوت النبوات ص٣١٨.

لا يجتمع اثنان من رؤسائهم على أمرٍ واحدٍ"[١].

فما أشد تشرذم الذين اعتمدوا العقل وحده في النظر!

وقد قال فيهم الغزالي -رحمه الله-: "فإن خبطهم طويل، ونزاعهم كثير، وآراؤهم منتشرة، وطرقهم متباعدة متدابرة"[٢].

ويرى الغزالي رحمه الله أن ردود أرسطو على أفلاطون دليل أنهم يحكمون بظنٍ وتخمين، ولو كانت علومهم العقلية متقنة البراهين كعلومهم الحسابية لما اختلفوا كما لم يختلفوا في علومهم الحسابية[٣].

فالعقول متفاوتة. ولا إجابة إلا ببعثة الرسل فهي التي تحسم الخلاف بين العقول.

قال الماوردي: "إن قضايا العقول قد تختلف فيما تتكافأ فيه أدلتها فانحسم ببعثة الرسل"[٤].

وتفاوت العقول ليس لتفاوت الأفهام فحسب، ولا لتفاوت القدرات والملكات فقط. بل إن العقل ذاته يتغير في كل لحظةٍ. فانظر إلى نفسك في يومك وأمسك وغدك. وانظر إلى ما كنت لا تعقله ثم عقلته ثم ربما غدًا لفظته أو عقِلت غيره. فهذا حالك وأنت **بعقلك لا بعقل غيرك تتقلب!**

---

(١) تأويل مختلف الحديث ص١٤.

(٢) تهافت الفلاسفة ٧٦.

(٣) المصدر السابق ص٧٦.

(٤) أعلام النبوة للماوردي ٢-٦٨.

ف: **"رحمة الله الكبرى هي النبوة والرسالة، وكل ما فيها خيرٌ مما يجمعون بعقولهم المختالة"**[١].

فالمبالغة في تقدير العقل كذب. وحجْب العقل عن التفكير والنظر قد يؤدي إلى الكفر ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك:١٠].

فللعقل ميدانه؛ وآليات العقل لها مسالكها التي تجيدها، لكن هذه المسالك في بحرها هي لا في بحر غيرها. فإذا خرجت بها عن بحرها إلى بحر غيرها غرقت وأغرقت.

ومثال ذلك أن: العقل قد يدل على الامتنان والشكر للرزّاق الوهاب فهذه دلالة عقلية من النظر في الموجودات وتبّصر النعم التي لا تحصى، لكن العقل وحده لا يدل على كيفية شكر الخالق سبحانه، ولا طريقة ذلك، ولاشروط وأوقات العبودية الحقة!

فبالنص الشرعي وحده تقوم الحجة وتُعرف الطريقة ويرتقي العُبَّاد ويذل المتكبرون.

قال الشهرستاني -رحمه الله-: "المعارف قد تحصل بالعقل، ولكنها لا تجب إلا بالسمع -الأدلة الدينية-"[٢].

فأنت لا تفهم ما يلزمك بعقلك. لكنك في الوقت ذاته تشعر بحاجتك إلى باريك وخالقك.

فهنا يكون **العقل سابق والوحي سائق!**

أضِف إلى ما سبق أن: العقل لا يدل على شيءٍ من الغيب ولا يعرف تفصيل الماوراء وجزئياته فضلًا عن مجمله فضلًا عن ثبوته أو نفيه!

قال ابن خلدون -رحمه الله- في مقدمته: "العقل ... لا تطمع أن تزن به أمور التوحيد والآخرة وحقيقة النبوة وحقائق الصفات الإلهية، وكل ما وراء طوره، فإن ذلك طمعٌ في محال،

---

(١) الملل والنحل ٢-٢٥٢.

(٢) نهاية الإقدام للشهرستاني ص٣٧١.

ومثال ذلك مثال رجلٍ رأى الميزان الذي يُوزن به الذهب فطمع أن يزن به الجبال وهذا لا يُدرك"[(١)].

فالعقل لا يرصد إلا في نطاق آليات محيطه؛ ولا يُرتجى منه غير ذلك!

لكن دعونا نتسائل: ما فائدة أن تعرف تفاصيل جزءٍ معينٍ من العلوم في نطاق محيطك وأنت جاهلٌ بأعظم مطلوبٍ؟

ما فائدة أن تعرف شعورك بالامتنان لرازقك ولا تقوم بواجبك؟

ما فائدة أن تشهد آيات الخلق وشواهد الحق وحِكَم النِعم بعقلك، ثم لا تعرف ردة فعلك الأصلح تجاه ذلك وغاية وجودك؟

فأي تخلفٍ وانحطاطٍ معرفيٍ يريد أن يعيشه هؤلاء منكرو الرسالات؟

(١) المقدمة ص٤٥٩.

ملحوظة: بعض الاقتباسات الواردة في هوامش هذا المقال من كتاب ""رسالة خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم، د. ثامر بن ناصر، مكتبة الرشد"

كل خيرٍ في الوجود فمنشؤه من جهة الرسل

بدون الرسل والرسالات والإيمان بالنبوات، تتحول كل القيم في هذا العالم إلى غثاء.

بدون الإيمان بالنبوات يتحول الإنسان إلى مجرد نفاية نجمية star-stuff بلا قيمة كما يقول اللاأدري كارل ساغان[(١)].

بدون التسليم بصحة الرسالة تتحول كل الأشياء الجميلة إلى رعب ويصير الكون بلا هدف، وتصبح كل الغايات السامية هراء لا يُطاق[(٢)].

هذه مسلمات يتفق عليها الملحد والمؤمن!

فالعالم لا يستمد قيمته من ذاته.

ولذلك لا يرغب عن الإيمان بالله وبرسالاته إلا مَن أراد أن يدمر معنى وجوده، ويُسفه غايته في الحياة﴿ وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ ﴾ [البقرة:١٣٠].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "كل خيرٍ في الوجود فمنشؤه من جهة الرسول، وكل شر في العالم مختص بالعبد فسببه مخالفة الرسول أو الجهل بما جاء به، وأن سعادة العباد في معاشهم ومعادهم باتباع الرسالة، والرسالة ضرورية للعباد لابد لهم منها، وحاجتهم إليها فوق حاجتهم إلى كل شيء، والرسالة روح العالم ونوره وحياته، فأي صلاحٍ للعالم إذا عدم الروح والحياة والنور، والدنيا مظلمة ملعونة إلا ما طلعت عليه شمس الرسالة.

---

(١) Video Source: The Shores of the Cosmic Ocean [Episode ١].

Some part of our being knows this is where we came from. We long to return. And we can. Because the cosmos is also within us. We're made of star-stuff. We are a way for the cosmos to know itself. ٠٦ min ٠٤ sec.

(٢) cosmically inconsequential bundles of stardust, adrift in an infinite and purposeless universe.

وكذلك العبد ما لم تشرق في قلبه شمس الرسالة، ويناله من حياتها وروحها، فهو في ظلمة وهو من الأموات قال الله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:١٢٢].

فهذا وصف المؤمن، كان ميتا في ظلمة الجهل فأحياه الله بروح الرسالة ونور الإيمان، وجعل له نورًا يمشي به في الناس.

وأما الكافر فميت القلب "في الظلمات"، وسمى الله تعالى رسالته روحًا، والروح إذا عُدم فقد فقدت الحياة قال الله تعالى: (﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى:٥٢]. فذكر هنا الأصلين وهما الروح والنور"[(١)].

فأي ضلالةٍ يحياها المرء بإنكاره للرسل والرسالات!

وكل البشر بفطرتهم وصبغتهم التي صبغهم الله عليها لديهم قناعة بالواجب الأخلاقي، حتى الملحدين منهم. لكن لا شيء مادي يعطي تبريرًا لهذا الواجب الأخلاقي.

فما مصدر هذا الواجب الأخلاقي؟

أيضًا: لا شيء مادي نستمد منه وخز الضمير الأخلاقي وشعورنا بالحرج حين نُخطيء!

وإذا لم تكن الرسالات موجودة فلا يمكنك أن تصف عمل ما بأنه "أخلاقي" أو عمل آخر بأنه "لا أخلاقي"، فقط يمكنك أن تقول هذا "يعجبني" وذاك "لا يعجبني".

فبمعزل عن الله والرسالات لا يمكنك أن تبرر الواجب والحق والعدل والقيمة!

فنحن في عالمٍ مادي غير معنيٍ بالأخلاق أصلًا!

---

(١) مجموع الفتاوى ١٩-٩٤،٩٣.

فإما أن هذه الأخلاق سخف على أعلى درجة، وإما أنها تستمد معناها من عالمٍ آخر!

لذا فالرسالة هي روح هذا العالم، وهي نبضه الأوحد، وبغيرها يتحول العالم بكل صخبه إلى جثةٍ هامدة.

فالدنيا مظلمة ملعونة إلا ما طلعت عليه شمس الرسالة كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، فالرسالة روح العالم ونوره وحياته.

وظاهرة الرسالات والنبوات هي من الظواهر التي يتوقف عندها التاريخ بالرصد والتعجب واليقين. فالرسالة ليست حدثًا فرديًا لا يتكرر.

ولا هي تطلعًا نفسيًا عند دعاتها بل هي على العكس من ذلك تمامًا، فكثير من الأنبياء كيونس وأرميا ومحمد -عليهم الصلاة والسلام- توقفوا في بداية رسالتهم ورهبوا الموقف وابتعدوا، ولكن دعوتهم استولت عليهم أخيرًا، بعد أن تبين أنها دعوة من خارج أنفسهم.

فمقاومتهم في البداية تدل على التعارض بين اختيارهم والإرادة الإلهية العليا التي تطوق رغبتهم. وفي هذا دلالة قوية على استقلالية حجة الرسالة عن الرغبة الشخصية والنزعة النفسية.

أيضًا الرسالة ليست حدثًا فرديًا بل هي تتكرر في أصقاعٍ شتى وأزمانٍ متباينة؛ يقول مالك بن نبي -رحمه الله: "ثم إنَّ مبعث نبيٍّ ما ليس حدثًا فردًا ليكون غريبًا نَادرًا بل هو على العكس من ذلك ظاهرة مستمرة تتكرر بانتظام واستمرار، ظاهرة تتكرر بالكيفية نفسها، وهذا يُعد شاهدًا علميًا يمكن استخدامه لتقرير مبدأ وجودها بشرط التثبت من صحة هذا الوجود بالوقائع المتفقة مع العقل ومع طبيعة المبدأ "[(١)].

فهنا لك أن تسأل دعاة التجريب: ألا يعد تكرار ظاهرة الرسالة شاهدًا على موضوعيتها؟

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ﴾ [المؤمنون:٤٤].

أما التثبت من صحة وجود الرسالة فيسير.

---

(١) مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية ص٨٧.

وترّصده جد بسيط.

وآياته متكاثرة لا تتوقف ولا يحصيها المتبصر!

ومدار التسليم بصحة الرسالة يتوقف على صدق مدعيها لا أكثر!

يقول الفيلسوف زكي نجيب محمود: " ليس مدار التسليم برسالة النبي على ما يقدمه من برهان عقلي، بقدر ما يكون مدار التسليم مبنيًا على صدق صاحب الرسالة وأمانته"[(١)].

فمدعي الرسالة إما أن يكون من أفضل الخلق وأكملهم -لأنه رسول من عند الله-، وإما أن يكون من أنقص الخلق وأذلهم-لأنه ادعى بهتانًا عظيمًا-، فكيف يشتهب أفضل الخلق وأكملهم بأنقص الخلق وأذلهم؟

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "كل شخصين ادعيا أمرًا من الأمور أحدهما صادق في دعواه والآخر كاذب، فلابد أن يبين صدق هذا وكذب هذا من وجوه كثيرة، إذ الصدق مستلزم للبر والكذب مستلزم للفجور"[(٢)].

ويقول رحمه الله في موضعٍ آخر من كتبه: "ليست المعجزة هي الشرط الأوحد للنبوة فمُدعي النبوة إما أن يكون أصدق الصادقين أو أكذب الكاذبين ، ولا يُلبس هذا بهذا إلا على أجهل الجاهلين.

وقد أسلم السابقون الأولون أمثال أبي بكر الصديق وخديجة والمُبشَّرين قبل انشقاق القمر والإخبار بالغيب والتحدي بالقرآن ... وكثيرٌ من الناس يعلم صدقَ المُخبر بلا آية البتة ...وموسى بن عمران لما جاء إلى مصر وقال لهم إن الله أرسلني علموا صدقه قبل أن يُظهر لهم الآيات، وكذلك النبي لما ذكر حاله لخديجة وذهبت به إلى ورقة بن نوفل، قال هذا هو الناموس الذي

(١) من وحي كتاب موقف من الميتافيزيقيا، زكي نجيب محمود.

(٢) الاصفهانية ص٤٧٤.

يأتي موسى، وكذلك النجاشي وأبو بكر علموا صدقه علمًا ضروريًا لما أخبرهم بما جاء به وما يعرفون من صدقه وأمانته.

مع غير ذلك من القرائن يوجب علمًا ضروريًا بأنه صادق، وخبر الواحد المجهول من آحاد الناس قد تقترن به قرائن يُعرف بها صدقه بالضرورة فكيف بمن عُرف بصدقه وأمانته وأخبر بمثل هذا الأمر الذي لا يقوله إلا مَن هو أصدقُ الناس أو أكذبهم وهم يعلمون أنه من الصنف الأول دون الثاني"[١].

فالاستدلال على صحة دعوى الرسالة أمرٌ يسير.

والنبي محمد صلى الله عليه وسلم لم يدعِ أحد أنه كذِب ولو لمرةٍ واحدة!

فقد عجز البشر عن إظهار كذبةٍ واحدة في جميع عمره صلى الله عليه وسلم على تعدد مواقفه وكثرة أخباره.

"ما عهدنا عليك كذبًا قط"

"ما جربنا عليك كذبًا" ألم تكن هذه الجملة هي أول رد من المشركين في أول حوارٍ بينه وبينهم بشأن رسالته؟[٢].

بل ما اشتهر -صلى الله عليه وسلم- إلا بالصادق الأمين، ولذا فقد أخبر القرآن العرب أنهم ماكرين حين ينتكرون لرسالته صلى الله عليه وسلم وهم يعلمون حاله قبل بعثته وأنه صادق وأمين ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ [المؤمنون:٦٩].

ولو تبصّرت الكتب السابقة لما ازددت إلى يقينًا!

فقد عُرِّف النبي -صلى الله عليه وسلم- أيضًا بالصادق الأمين في كتب الأسبقين.

---

(١) ثبوت النبوات عقلًا ونقلًا، شيخ الإسلام بن تيمية، دار ابن الجوزي، ص ٥٧٣، وبمعناه في نفس المصدر ص٣١٨.

(٢) انظر تفسير الطبري في قوله تعالى ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء:٢١٤].

ينقل سفر الرؤيا –آخر أسفار الكتاب المقدس– وهو السفر الخاص بنبوءات آخر الزمان، ينقل لنا صورة النبي محمد –صلى الله عليه وسلم– ونعته فيقول: " ثم رأيت السماء مفتوحة، وإذا فرس أبيض والجالس عليه يدعى أمينًا وصادقًا، وبالعدل يحكم ويحارب"[(١)].

مَن هو الذي ركب الفرس وبالعدل كان يحكم ويحارب، وكان لقبه "الصادق الأمين"، وكان مبتعثًا من السماء –السماء مفتوحة– غيره –صلى الله عليه وسلم–؟

إن حجة الرسالة وحجة صدق الرسول هي من الحجج العقلية التي لا تتطلب من المرء أكثر من التسليم والإسلام!

(١) سفر الرؤيا إصحاح ١٩ عدد١١.

لا يستقيم إيمان عبدٍ يؤمن بأحد الأنبياء ويكفر بمحمدٍ صلى الله عليه وسلم

لقد قام الأنبياء بدورٍ رئيس في تاريخ الإنسانية، ومن خلال الأنبياء فحسب أصبح الإنسان محورًا للتاريخ، ومعنىً للوجود، وغايةً كبرى في هذا الكون!

وعن طريق الإيمان بالأنبياء تـأكّد سمو الإنسان ومعنى قيمته وأصل مركزيته.

فكما قرّرنا من قبل: العالم بدون النبوات ظلامٌ دامس وغثاءٌ قاحل وصحراء مجدبة.

ولولا النبوات لما اطمئنت النفس ولا اهتدت البصيرة ولا رُزقت القلوب حياتها!

فبالنبوات تحيا القلوب وتطمئن النفوس وتهتدي البصائر.

فالحمد لله رب العالمين.

وكل جاهلٍ بالعلم الإلهي الذي بثّه الأنبياء جاهلٌ بأعظم مطلوبٍ في الوجود.

فحاجة العبد إلى الرسالة أعظم من حاجته لكل شيءٍ، فالرسالة ضرورية للعباد، لا بدَّ لهم منها.

ونبوة النبي محمد -صلى الله عليه وسلم- لم تكن بدعًا من النبوات قبله ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف:٩].

فنبوة محمد -صلى الله عليه وسلم- جائت بترسيخ التوحيد واستمرار الشريعة وحفظ المصادر، واستقرار موازين الفضيلة وظهور الدين.

بل كان لنبينا محمد -صلى الله عليه وسلم- من كل هذا الحظ الأوفر والجناب الأسمى والمقام الأرفع!

فلن يجد الملحدة لأحدٍ مثل الذي لمحمدٍ -صلى الله عليه وسلم- في الأعجوبة والرفعة.

وشريعته -صلى الله عليه وسلم- لم يعترها ما اعترى سائر الشرائع بل هي في كل عصرٍ غضة طرية، ومنذ موته -صلى الله عليه وسلم- وحتى الآن لم تلزم الحاجة لمبعث رسولٍ آخر فالأحكام تُقرأ ليل نهار كأنها للتو خرجت من فم رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

فمَن يُقر بجنس الأنبياء لا يبقى عنده أدنى شك في نبوة محمدٍ -صلى الله عليه وسلم-.

والذي يُكذب بنبوة محمدٍ -صلى الله عليه وسلم- هو بالأحرى يكذب بنبوة كل نبيٍ أخر. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "الذي يُكذب بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم يُكذب بالطريق الذي عرفنا من خلاله صدق الأنبياء وصحة نبوتهم.

فإن الطريق الذي يعلم به نبوة موسى وعيسى يُعلم به نبوة محمد بطريق الأولى، فإذا قالوا علمت نبوة موسى والمسيح بالمعجزات وعرفت المعجزات بالنقل المتواتر إلينا، قيل لهم معجزات محمد صلى الله عليه وسلم أعظم وتواترها أبلغ والكتاب الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم أكمل، وأمته أفضل وشرائع دينه أحسن. **وموسى جاء بالعدل وعيسى جاء بتكميلها بالفضل وهو صلى الله عليه وسلم قد جمع في شريعته بين العدل والفضل**.

فإن ساغ لقائل أن يقول هو مع هذا كاذب مفتر كان على هذا التقدير الباطل غيره أولى أن يقال فيه ذلك فيبطل بتكذيبهم محمدًا جميع ما معهم من النبوات، **إذ حكم أحد الشيئين حكم مثله فكيف بما هو أولى منه**.

فلو قال قائل إن هارون ويوشع وداوود وسليمان كانوا أنبياء وموسى لم يكن نبيًا أو أن داوود وسليمان ويوشع كانوا أنبياء والمسيح لم يكن نبيًا، أو قال ما تقوله السامرة أن يوشع كان نبيًا ومن بعده كداوود وسليمان والمسيح لم يكونوا أنبياء، أو قال ما يقوله اليهود إن داوود وسليمان وأشعيا وحبقوق وميخا وعاموص ودانيال كانوا أنبياء والمسيح بن مريم لم يكن نبيًا، كان هذا قولًا متناقضًا معلوم البطلان. فإن الذين نفى هؤلاء عنهم النبوة أحق بالنبوة وأكمل نبوةً ممن أثبتوها له، **ودلائل نبوة الأكمل أفضل فكيف يجوز إثبات النبوة للنبي المفضول دون الفاضل**، وصار هذا كما لو قال قائل أن زفر وابن القاسم والمزني والأثرم كانوا فقهاء وأبا حنيفة ومالكًا والشافعي وأحمد لم يكونوا فقهاء، أو قال إن الأخفش وابن الأنباري والمبرد كانوا نحاة والخليل وسيبويه والفراء لم يكونوا نحاة، أو قال إن صاحب الملكي والمسيحي ونحوهما من

كتب الطب كانوا أطباء وبقراط وجالينوس ونحوهما لم يكونوا أطباء، أو قال إن كوشيار والخرقي ونحوهما كانوا يعرفون علم الهيئة وبطليموس ونحوه لم يكن لهم علمٌ بالهيئة.

ومن قال إن داوود وسليمان وميخا وعاموص ودانيال كانوا أنبياء، ومحمد بن عبدالله لم يكن نبيًا فتناقضه أظهر وفساد قوله أبين من هذا جميعه، بل وكذلك من قال إن موسى وعيسى رسولان والتوراة والإنجيل كتابان منزلان من عند الله ومحمد ليس برسول والقرآن لم ينزل من الله فبطلان قوله في غاية الظهور والبيان لمن تدّبر ما جاء به محمد وما جاء به من قبله، وتدّبر كتابه والكتب التي قبله وآيات نبوته وآيات نبوة هؤلاء، وشرائع دينه وشرائع دين هؤلاء، وهذه الجملة مفصّلة مشروحة في غير هذا الموضع لكن المقصود هنا التنبيه على مجامع جوابهم، وهؤلاء القوم لم يأتوا بدليلٍ واحدٍ يدل على صدق من احتجوا به من الأنبياء، فلو ناظرهم من يكذب بهؤلاء الأنبياء كلهم من المشركين والملاحدة لم يكن فيما ذكروه حجة لهم، ولا حجة لهم أيضًا على المسلمين الذين يقرون بنبوة هؤلاء، **فإن جمهور المسلمين إنما عرفوا صدق هؤلاء الأنبياء بإخبار محمد أنهم أنبياء فيمتنع أن يصدقوا بالفرع مع القدح في الأصل الذي به علموا صدقهم.**

وأيضًا فالطريق الذي به علمت نبوة هؤلاء بما ثبت من معجزاتهم وأخبارهم فكذلك تعلم نبوة محمد بما ثبت من معجزاته وأخباره بطريق الأولى، فيمتنع أن يصدق أحد من المسلمين بنبوة واحدٍ من هؤلاء مع تكذيبه لمحمد في كلمةٍ مما جاء به"[(١)].

ويقول في موضعٍ آخر: "فما من جنسٍ من الأدلة يدل على نبوة موسى والمسيح إلا ودلالته على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم أقوى وأكثر، فيلزم من ثبوت نبوة موسى والمسيح ثبوت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، ومن الطعن في نبوة محمد صلى الله عليه وسلم الطعن في نبوة موسى والمسيح"[(٢)].

---

(١) الجواب الصحيح ٢-٢٦،٢٩.

(٢) الجواب الصحيح ٢-٤٥.

فلا يمكن التصديق بنبوة نبيٍ من الأنبياء مع التكذيب بمحمدٍ صلى الله عليه وسلم.

والطريق الذي بها تثبت نبوة الأنبياء بمثلها وبأعظم منها بكثير تثبت نبوة محمدٍ -صلى الله عليه وسلم-.

بل إن التصديق بنبوته أولى من التصديق بنبوة غيره، وكل دليلٍ يُستدل به على نبوة نبيٍ، فمحمد -صلى الله عليه وسلم- حاز منتهى جنس ذلك الدليل.

وما ترتب على بعثته -صلى الله عليه وسلم- من تحقيق التوحيد ووضع شرائع العدل وغيرها من مقاصد الرسل أعظم من غيره وأجل وأكثر.

وبذلك يجب القطع بأن رسالته أتم وأعظم.

فلم يأت -صلى الله عليه وسلم- بنسقٍ خارجٍ على نسق الأنبياء قبله ﴿ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الصافات:٣٧].

وإلا فمَن علّمه -صلى الله عليه وسلم- بطلان عبادة الأوثان؟

مَن علّمه بطلان عبادة الآلهة البشرية؟

-مع أن العرب ما عرفوا التقرب إلى الله إلا بوثنٍ أو ببشر!-

ومَن علّمه عصمة الأنبياء حتى يطهر مقامهم الشريف مما ألصقه به أتباعهم؟

من علّمه فضيلة ترك الزنا والخمر والربا وفواحش الأعمال -مع أن مدار أشعار العرب ومعلقاتهم التي بها يتباهون على الخمر والنساء والغزل-؟

من علّمه -صلى الله عليه وسلم- التقرب إلى الله بالطاعات؟

أليس كل هذا كان طريق الأنبياء قبله؟

﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [فصلت:٤٣].

فلم يكن -صلى الله عليه وسلم- بدعًا من الرسل.

ولذلك مَن آمن بأحد الأنبياء وقرّر في نفس الوقت أن يكفر بمحمدٍ صلى الله عليه وسلم فهو ضالٌ مفترٍ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴾ [آل عمران:٩٠].

يقول الإمام جلال الدين السيوطي رحمه الله في تفسير الآية: (إن الذين كفروا) بعيسى (بعد إيمانهم) بموسى (ثم ازدادوا كفرًا) بمحمد (لن تقبل توبتهم) إذا غرغروا أو ماتوا كفارًا (وأولئك هم الضالون).

فالذين وصلتهم البينات الظاهرات على صدق النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهم يعرفون حال الأنبياء من قبله ثم شهدوا حاله، وبعد ذلك أنكروا رسالته فأولئك هم الظالمون ﴿ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [آل عمران:٨٦].

وقد جاء وفدٌ من النصارى إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- وهم وفد نجران، وأرادوا مباهلته. لكن لما شهدوا حاله وحال رسالته ومشابهتها لرسالات الأنبياء من قبله نكصوا عن المباهلة وخافوا.

وفيهم نزل قول الله تعالى: ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [آل عمران:٦١].

والمباهلة أن يقولوا: اللهم العن الكاذب في شأن عيسى وقد وافقهم -صلى الله عليه وسلم، وبالفعل خرج ومعه الحسن والحسين وفاطمة وعلي، وقال لهم: إذا دعوت فأمِّنوا، فقالوا: حتى ننظر في أمرنا ثم نأتيك فقال ذو رأيهم: والله لقد عرفتم يا معشر النصارى أن محمدًا نبيٌ مرسل، وأنه ما باهل قومٌ نبيًا إلا هلكوا، فأبوا أن يلاعنوا وصالحوه على الجزية! [١].

---

(١) نقلًا عن تفسير البغوي.

تخيل!

تخيل صالحوه على الجزية، في مقابل ألا يدعو عليهم؟

أي حجمٍ من المكابرة والعناد وصل إليه هؤلاء!

وعن ابن عباسٍ قال: لو خرج الذين يباهلون لرجعوا لا يجدون مالًا ولا أهلًا!

فهؤلاء الذين شهدوا صدق الرسالة لا حجة لهم في كفرهم ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [آل عمران: ٧٠].

فلا يستقيم إيمان عبدٍ يرفض رسالة ربه ويمتنع عن قبول بعض الرسل، بينما يرض بآخرين.

قال الله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ ﴾ [الحديد:٢٨].

(يا أيها الذين آمنوا) بعيسى (اتقوا الله وآمنوا برسوله) محمد صلى الله عليه وسلم وعيسى[١].

فدعوة الإسلام دعوة لا يمكن لعاقلٍ أن يردها!

---

(١) نقلًا عن تفسير الإمام جلال الدين المحلي للآية.

صفته ونعته -صلى الله عليه وسلم-

الذي يظن أن إقناعًا لعقول الناس تم بالسيف، أو أن ترك هؤلاء الناس لدينهم كان رغبةً فقط أو رهبةً من أمرٍ دنيوي، هو واهمٌ جاهل.

فأي أمةٍ هذه التي تركت ما ينعقد عليه قلبها -دينها- من أجل خوفٍ طاريء؟

وأي جيلٍ هذا الذي يستسلم عن بكرة أبيه ويتحول إلى عاملٍ مخلصٍ في خدمة دينٍ جديد لمجرد تلويحٍ بسيفٍ؟

إن هذه الفروض التي يطرحها الملحدة الجدد لتبرير تحوّل حضارات الأرض في ظرف جيلٍ واحد -جيل الصحابة- إلى الإسلام، وذوبان عقائد الكفر من القلوب بشواهد الحق لهي فروضٌ تسيء لأصحابها أكثر مما تحفظ لهم كفرهم!

وقد آمن بمحمدٍ -صلى الله عليه وسلم- أهل مكة وأهل المدينة وأهل البحرين وأهل اليمن ولم يعط واحدًا منهم درهمًا، ولا كان معه ما يخيفهم.

وقد أسلم الجلندي ملك عمان زمن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لا خوفًا من سيفٍ ولا حبًا في رياسة. بل كان إسلامه لأن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يأمر بالخير ويفعله، وينهى عن الباطل ويجتنبه؛ قال الجلندي: "لقد دلني على هذا النبي الأمي أنه لا يأمر بخيرٍ إلا كان أول آخذٍ به، ولا ينه عن شر إلا كان أول تاركٍ له... وأنه يفي بالعهد وينجز الوعد وأشهد أنه نبي"[(١)].

وأسلم النجاشي ملك الحبشة حين سمع جعفر بن أبي طالب -رضي الله عنه- يتلو شيئًا من سورة مريم. فقال: "إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاةٍ واحدة"؛ ثم بكى حتى

---

(١) كما ورد بتفصيله في الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر، والشفا للقاضي عياض باب: فيما أظهره الله تعالى على يديه من المعجزات و شرفه به من الخصائص و الكرامات.

اخضلت لحيته! [١].

أما باذان عامِل كسرى على اليمن فقد أسلم بعد أن شهد معجزةً حيةً لرسول الله –صلى الله عليه وسلم– وذلك أن النبي –صلى الله عليه وسلم– أخبر رُسل باذان بهلاك كسرى بعد أن مزّق رسالة رسول الله –صلى الله عليه وسلم–. ولم يصدقا فعادا إلى باذان، وانتظر باذان الخبر من بلاد الفرس، فجاء الخبر بعد شهورٍ بمقتل كسرى في تلك الليلة التي حددها النبي –صلى الله عليه وسلم –، فأسلم باذان، وأسلمت حكومته، وأسلم أهل اليمن بإسلامهم، وجاء وفدٌ من أهل اليمن يتعلمون الإسلام وهم الذين أرسل فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل [٢].

فالذي يظن أن سيفًا رُفع لإسلام تلك الأمم فقد أبعد النُّجعة، بل ما رُفِع السيف أولًا إلا في وجه الإسلام. ولم يكن ينشغل المكذبون برسول الله –صلى الله عليه وسلم– بشيءٍ إلا للتخطيط لهدم الدعوة وقتل قائدها صلى الله عليه وسلم بأي ثمنٍ.

فقد حوربت الدعوة منذ اللحظة الأولى بالسيف تارةً وبالمكر تارات، والنبي –صلى الله عليه وسلم– كان يعلم من شأن الأنبياء قبله أن كثيرًا منهم قد قُتل. فلم يرده ذلك ولم يجعله يجزع بل صبر وصابر ودعا وأصلح وهادن ورفق بهم ودعا لهم.

وقد أقام بقلةٍ قليلةٍ من أصحابه طيلة ثلاثة عشر عامًا بين قومٍ يريدون استئصال شأفته هو أتباعه.

فقد جائهم بدينٍ يخالف فيه عهدهم ويسفه أحلامهم. وكان يقرأ في مجامعهم القرآن وفيه عيبهم وعيب آلهتهم.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد ١/ ٢٠٢ ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد : رجاله رجال الصحيح.

(٢) البداية والنهاية، الجزء الثاني، ما آل إليه أمر الفرس باليمن.

وكان يخرج إلى المواسم ويقوم في المحافل ويبرز إلى القبائل يدعو لتوحيد النبيين من قبله ويحذر من الشرك وأهله، كل هذا وقريش ترصده وتتبعه برجالاتها ودهاتها. ويصدون الناس عن دعوته بل ويأمرون الحجيج أن يضعوا الكرسف -القطن- في آذانهم حتى لا يسمعوا للقرآن وهو يتلوه لئلا يتأثر العرب به! [(١)].

وظلوا يمكرون به ويحاولون اغتياله المرة تلو المرة ويمكرون بصاحبته ويقتلونهم ويعذبون من آمن معه، وحبسوه في شعب أبي طالبٍ أربع سنواتٍ، وحاصروا داره وألقوا على كتفه القذر ومكروا به كل مكرٍ﴿ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴾ [إبراهيم:٤٦].

وقد تضرع أهله إليه أن يلين لقومه من قريش، وأن يتوقف عن عيب آلهتهم وتسفيه أحلامهم فلا يزداد إلا إبطالًا للباطل وإحقاقًا للحق [(٢)].

وقد تلونت الأحوال عليه -صلى الله عليه وسلم- من غنىً وفقرٍ وسلمٍ وخوفٍ وأمنٍ وإقامةٍ وقتل أحبائه وأوليائه بين يديه، وأذى الكفار له بالحبس والتجويع والقهر والإغراء ومحاولة القتل، فهو في مجموع التعذيب والأذى لم يُعذب نبي ولم يؤذ نبيٌّ مثل ما أوذي -صلى الله عليه وسلم- [(٣)].

وللمرء أن يتسائل: لماذا مع الترهيب الذي تعرض له في بداية دعوته لا يتوقف عن الدعوة؟

فضرَبه الصبيان في الطائف حتى أُدمي رأسه ورجله الشريفة، ودخل مكة في جوار مطعم بن عدي ثم رد جواره ، ورُمي أمعاء الجزور عليه ، وعانى وأتباعه الجوع والحصار لمدة ثلاث

---

(١) كما ورد في قصة إسلام الطفيل بن عمرو الدوسي رضي الله عنه، يُنظر: البيهقي في دلائل النبوة (٢١٠٨).

(٢) الفقرة من وحي كتاب"رسالة خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم، د. ثامر بن ناصر، مكتبة الرشد".

(٣) م.س.

سنواتٍ في شعاب مكة حتى أنه كان يربط الحجرين على بطنه من شدة الجوع.

وقال صلى الله عليه وسلم -بأبي وأمي ونفسي- : " لقد أُخفت في الله وما يخاف أحد ، ولقد أوذيت في الله وما يؤذى أحد ، ولقد أتت علي ثلاثون من بين ليلة ويوم ، وما لي ولبَلال طعام يأكله ذو كبد ، إلا شيء يواريه إبط بلال"(١) .

كل هذا يجري في الوقت الذي يعرض عليه الكفار الرياسة والمال، لا مقابل أن يتنازل عن دعوته، بل مقابل أن يتركهم وآلهتهم وألا يُسفه عقيدتهم!

لكن دعوته كانت وحيٌ يوحى ليست مِن قِبل نفسه حتى يتركها لأفضل العروض المتاحة!

فكان -صلى الله عليه وسلم- أمام كل هذه الفتن قويًا في الحق لا يخش لومة لائمٍ.

وظل طيلة حياته ثبتًا حين الكرب الشديد، لا يفر ولا يجزع. يقول علي بن أبي طالبٍ -رضي الله عنه- : "كنا إذا حمي الوطيس واحمرت الحُدق اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم، فما يكون أحد أقرب من العدو منه، ولقد رأيتنا يوم بدرٍ ونحن نلوذ بالنبي صلى الله عليه وسلم وهو أقربنا للعدو"(٢) .

أما عبادته وذكره لربه على كل أحواله، وقيامه حتى تتفطر قدماه، ووصاله الصوم وتصدقه بكل ماله وإحسانه إلى أهل بيته وإلى جيرانه، وتفقد أحوال أصحابه؛ فهذا مما سارت بأحاديثه ومروياته الركبان.

فكيف يستقيم في عقلٍ زهده -صلى الله عليه وسلم- في الدنيا ؛ وتصور الملحدة أنه طلب الدنيا بالسيف!

وكان زهد النبي -صلى الله عليه وسلم- في الدنيا زهد من ملكها وهي راغمةً لا زهد من

---

(١) رواه الترمذي في سننه (٢٤٧٢).

(٢) رواه أحمد.

عجز عنها.

فلم يشبع -صلى الله عليه وسلم- من خبز الشعير ثلاثة أيامٍ تباعًا حتى فارق الدنيا[١].

وكان يمر الهلال والهلالان ولا يطعم سوى التمر والماء[٢].

ولم ينم -صلى الله عليه وسلم- على الفرش الناعمة؛ وقد دخل ابن مسعودٍ يومًا على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وأثر الحصير بأحد جنبيه فبكى على حال محمدٍ -صلى الله عليه وسلم.

فقال: ما يبكيك يا عبد الله؟

قال: يا رسول الله كسرى وقيصر في الحرير والديباج. فقال -صلى الله عليه وسلم- : لا تبكِ يا عبد الله فإن لهم الدنيا ولنا الآخرة، وما أنا والدنيا ومثلي ومثل الدنيا إلا كراكبٍ نزل تحت شجرةٍ وتركها[٣].

فقد كان صلى الله عليه وسلم ينام على جلدٍ حشوه الليف ومات ودرعه مرهونةٌ عند يهودي[٤].

فعندما يتهمه الملحدة بطلب الدنيا فاعلم أنهم لا يعرفون شيئًا عن سيرته. فكيف يرضى بالعيش الكدر وكانت الدنيا تحت يده ولم يمت إلا وجزيرة العرب تدين بالإسلام.

أما عن رحمته -صلى الله عليه وسلم- بأمته؛ فانظر إلى رواية معاوية بن الحكم السُّلمي، حين يقول: بينا أنا أُصلِّي مع رسول الله - صلَّى الله عليه وسلَّم - إذ عَطَس رجلٌ من القوم، فقلتُ: يرحمك الله، فرماني القومُ بأبصارهم، فقلت: واثُكل أُمِّياه! ما شأنكم تنظرون إليَّ؟!

---

(١) رواه البخاري (٤٩٥٥).

(٢) متفق عليه.

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري (٤٩١٣)، ومسلم (١٤٧٩). واللفظ من: الزهد لابن أبي عاصم (١/ ٢٠٠).

(٤) متفق عليه: أخرجه البخاري (٢٩١٦)، ومسلم (١٦٠٣).

فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم، فلمَّا رأيتهم يُصمِّتونني، لكنِّي سكت.

فلمَّا صلَّى رسول الله - صلَّى الله عليه وسلَّم - فبأبي هو وأمي، ما رأيتُ معلِّمًا قبلَه ولا بعدَه أحسنَ تعليمًا منه، فوالله ما كَهَرني ولا ضَرَبني ولا شتمني، قال: «**إنَّ هذه الصَّلاةَ لا يصلح فيها شيءٌ من كلام الناس، إنَّما هو التسبيحُ والتكبير، وقراءة القرآن**»[(١)].

وقد جذبه أعرابي من ثيابه جذبةً أثرت في صفحة عنقه -صلى الله عليه وسلم- وقال له: يا محمد مر لي من مال الله الذي عنده فإنه ليس مالك ولا مال أبيك.

فالتفت إليه -صلى الله عليه وسلم- وضحك وأمر له بالعطاء[(٢)].

فقد كان صلى الله عليه وسلم حكيمًا في معالجة الأمور.

دائم البِشر سهل الخلق سمح الوجه، يخزن لسانه لإحقاق الحق وإبطال الباطل، عظيم الكرم سخي الروح، فيجيب دعوة العبد ويأكل مع المجذوم ويحلب شاته ويخدم نفسه صلى الله عليه وسلم.

وقد أوتي -صلى الله عليه وسلم- من الحِكم البالغة والعلوم الكثيرة وعلّم التشريعات الشاملة الجامعة في كل صغيرةٍ وكبيرة في أمور الدنيا والدين وهو أمي من بيئةٍ أمية.

فبُعث -صلى الله عليه وسلم- بأفضل الكتب إلى أفضل الأمم بأفضل الشرائع[(٣)].

وجاء القرآن لا على مقاسه هو ولا على مقاس بيئته ولا نزولًا على رغبات أصفيائه وصحابته، وإنما كان يأتي معاتبًا ومصححًا ومفسرًا ومعلمًا وهاديًا.

---

(١) رواه مسلم (٨٤١).

(٢) أخرجه النسائي (٤٧٧٦) وأبو داود (٤٧٧٥).

(٣) الفقرة من وحي كتاب"رسالة خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم، د. ثامر بن ناصر، مكتبة الرشد".

فالمدّعون من البشر والراغبون في العلو في الأرض يحاولون قدر الإمكان إخفاء عيوبهم لستر حقيقة أمرهم على الناس، أما النبي -صلى الله عليه وسلم- فما أكثر الآيات التي تصحح وتعاتب على مواقفه -صلى الله عليه وسلم- مثل أول سورة عبس والتحريم والآيات في أسارى بدر.

أيضًا لو تبصّرت إلى حاجته الماسة -صلى الله عليه وسلم- لنزول الوحي في لحظاتٍ عصيبة ليقطع ألسنة المشركين والمشككين وإذا بالآيات تتأخر جدًا ولو كانت من عند نفسه لما تأخرت.

صلى الله عليه وسلم!

وفي الأخير: أخبر الله عز وجل بنصر نبيه، وأخبر بسيادة دينه وانتشاره، وديانات العرب قائمة وملوكهم على جزيرة العرب مستولية، وكانت ممالك الهند وكسرى والقسطنطينية مما لا يحلم العرب أن يروه فضلًا عن أن تنتشر كلمتهم فيه.

فركب جيله -صلى الله عليه وسلم- البحار وأخرجوا الروم من مصر والشام وأرض المغرب.

وكانت العرب قبلها بقليل تسخر حين تسمع أن هذا الرجل سينتصر ويبطل الباطل في شرق الأرض وغربها، وكانوا يعتبرون انتصاره من قبيل هدم الجبال الشم الرواسي بريشةٍ تطير [(١)].

بل أخبر الله في كتابه أن نصر نبيه وانتشار دينه حقٌ قادم، وأن مَن ظن خلاف ذلك فليشنق نفسه ليهدأ غيظه ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ۝١٥﴾ [الحج:١٥].

فقد أخبرت الآيات أن نصره -صلى الله عليه وسلم- قادمٌ لا محالة، وهو ما وقع بتمامه!

---

(١) م.س.

شيءٌ من آيات نبوته -صلى الله عليه وسلم-

أخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- بعجائب الأمور ومغيبات الأحداث والأحوال فوقعت كما أخبر.

وكانت هذه الشواهد دليلًا على صدق صاحب الرسالة والتأييد الإلهي!

فقد أخبر صلى الله عليه وسلم أم حرام بنت ملحان أن أُناسًا من أمته سيركبون البحر غزاةً في سبيل الله، وستكون هي أول الشهداء في غزاة البحر وقد كان كما أخبر -صلى الله عليه وسلم[(١)].

حيث ركبت البحر في خلافة عثمان بن عفان وماتت شهيدةً ودفنت هناك، وجامع أم حرام في قبرص معروفٌ إلى اليوم![(٢)].

وأخبر -صلى الله عليه وسلم- أننا سنقاتل الترك صغار الأعين حمر الوجوه ذلف الأنوف كأن وجوههم المجال المطرقة؛ يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: "وهؤلاء الطوائف كلها قاتلهم المسلمون وهؤلاء هم التتار وهذه هي صفتهم"[(٣)].

وأخبر -صلى الله عليه وسلم- بحدوث الردة، مع أن هذا كان مستبعدًا تمامًا في عصره، وكان الناس يأتون للدين أفواجًا وتُسلخ ظهورهم لتركه فما يزيدهم هذا إلا تمسكًا وقد كان[(٤)].

وأخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- بشهادة عمرَ وعثمانَ وعلي وطلحة والزبير -رضي

---

(١) متفق عليه. البخاري (٢٦٣٦) ومسلم (١٩١٢).

(٢) أعلام النساء، عمر رضا كحالة، أم حَرَام بنت مُلحان..

(٣) الجواب الصحيح ٢-٨١.

(٤) رواه مسلم (١١٤).

الله عنهم أجمعين-، وأنهم لن يموتوا على فُرُشِهم أو سواه مما يموت به الناس.

فقد صعد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على حراء ذات يوم هو وأبو بكرٍ وعمرُ وعثمانُ وعليُ وطلحةُ والزبيرُ، فتحركت الصخرة، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «**اهدأ، فما عليك إلا نبيٌ أو صديقٌ أو شهيد**»(١).

فشهد -صلى الله عليه وسلم- لنفسه بالنبوة، ولأبي بكرٍ بالصديقية، ولعثمانَ وعليَ وطلحةَ بالشهادة وقد كان.

وذات يومٍ مرِض علي -رضي الله عنه- مرضًا شديدًا، فزاره أبو سنان الدؤلي، فقال له: لقد تخوفنا عليك يا أمير المؤمنين في شكواك هذه.

فقال له علي: لكني والله ما تخوفتُ على نفسي منه، لأني سمعتُ رسولَ الله -صلى الله عليه وسلم- الصادقَ المصدوقَ يقول: «**إنك ستُضرب ضربةً ها هنا، وضربةً ها هنا - وأشار إلى صُدغَيه - فيسيل دمها حتى تختضب لحيتُك، ويكونَ صاحبها أشقاها، كما كان عاقر الناقة أشقى ثمود**». وهذا الذي كان مع علي -رضي الله عنه-(٢).

وتقبل فاطمة بنت النبي -صلى الله عليه وسلم- تمشي، فيقول لها أبوها: «**مرحبًا بابنتي**»، تقول أم المؤمنين عائشة: ثم أجلسها عن يمينه أو عن شماله، ثم أسرَّ إليهًا حديثًا، فبكت، ثم أسرَّ إليها حديثًا فضحكتْ.

فقلت لها: ما رأيتُ كاليوم فرحًا أقرب من حزن، فسألتُها عما قال؟ فقالت: ما كنت لأُفشي سِرَّ رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

فلما قُبِض النبيُّ -صلى الله عليه وسلم- سألتُها، فقالت: "أسرَّ إليّ: إن جبريل كان يعارضني القرآن كلَ سنةٍ مرة، وإنه عارضني العام مرتين، ولا أراه إلا حضر أجلي، وإنك أولُ

---

(١) رواه مسلم ح ٢٤١٧.

(٢) رواه الحاكم (٣/ ١٢٢)، والطبراني في الكبير ح (١٧٣). قال الهيثمي: إسناده حسن.

أهلِ بيتي لحاقًا بي، فبكيتُ، فقال صلى الله عليه وسلم: أما ترضَينَ أن تكوني سيدةَ نساء أهل الجنة أو نساءِ المؤمنين، فضحكتُ لذلك"[١].

ومن هؤلاء الذين تحدّث النبي -صلى الله عليه وسلم- عن وفاتهم، سِبطُه الحسين بن علي ريحانة أهل الجنة، فقد قال النبي -صلى الله عليه وسلم- لإحدى أزواجه: «**لقد دخل عليّ البيت ملَك لم يدخل عليَّ قبلَها فقال لي: إن ابنك هذا حسين مقتول، وإن شئت أريتُك من تربة الأرض التي يقتل بها. قال: فأخرج تربةً حمراء**»[٢].

وأخبر -صلى الله عليه وسلم- بموت النجاشي في أرض الحبشة في يوم وفاته، وهذا خبرٌ تحمله الركبان يومذاك في شهرٍ، يقول أبو هريرة -رضي الله عنه-: «**نعى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- النجاشي في اليوم الذي مات فيه، خرج إلى المصلى، فصفّ بهم، وكبر أربعًا**»[٣].

وفي اليوم السابق ليوم بدرٍ، تفقد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أرض المعركة المرتقبة، وجعل يشير إلى مواضع مقتل المشركين فيها، ويقول: «**هذا مصرع فلان**».

قال أنس: ويضع يده على الأرض هاهنا هاهنا. فما ماطَ أحدهم عن موضع يد رسول الله -صلى الله عليه وسلم-[٤].

ومن عجيب ما جرى أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أخبر عن سوء خاتمة رجلٍ قاتل مع المسلمين فأحسن البلاء والجلاد، يقول أبو هريرة -رضي الله عنه- : شهدنا مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال لرجلٍ ممن يدعي الإسلام: «**هذا من أهل النار**».

---

(١) متفق عليه: البخاري (٣٦٢٤)، ومسلم (٢٤٥٠).

(٢) السلسلة الصحيحة ٨٨٢.

(٣) رواه البخاري (١٢٥٤).

(٤) رواه مسلم (١٧٧٩).

يقول أبو هريرة: فلما حضر القتال قاتل الرجل قتالًا شديدًا، فأصابته جراحة، فقيل: يا رسول الله، الذي قلتَ له: إنه من أهل النار؛ فإنه قد قاتل اليوم قتالًا شديدًا، وقد مات!

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «**إلى النار**».

قال أبو هريرة: فكاد بعض الناس أن يرتاب. فبينما هم على ذلك إذ قيل: إنه لم يمت، ولكن به جراحًا شديدًا.

فلما كان من الليل لم يصبر على الجراح، فقتل نفسه، فأُخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- بذلك، فقال: «**الله أكبر، أشهد أني عبدُ الله ورسولُه**»، ثم أمر بلالًا فنادى بالناس: «**إنه لا يدخلُ الجنة إلا نفسٌ مسلمة، وإن الله ليؤيد هذا الدين بالرجلِ الفاجر**»[(١)].

وأخبر -صلى الله عليه وسلم- بمقتل أحد المتنبئين الكذبة على يد رجلٍ صالح!

وأصل القصة في البخاري. قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «**قتَل الأسود العنسي الليلة رجلٌ صالحٌ من قومٍ صالحين**».

وبالفعل ففي تلك الليلة هلك الأسود العنسي على يد فيروز الديلمي باليمن.

وأخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- بأمر بقاء أمة الروم فقال: «**تقوم الساعة والروم أكثر الناس**»[(٢)].

والروم -الشعب المعروف وما يلحق به من نصارى- هم اليوم أكثر الناس[(٣)].

وأنت لو تدّبرت الأحاديث الصحاح التي جائت فيها أخبار آياته ومعجزاته -صلى الله عليه

---

(١) رواه البخاري (٣٦٠٢).

(٢) رواه مسلم (٢٨٩٨).

(٣) أمة الروم هي أكثر أمم الأرض، بعدد تقريبي ٢,٢ مليار نسمة، ثم المسلمون بعدد تقريبي ١,٦ مليار نسمة.

http://en.wikipedia.org/wiki/List_of_religious_populations

وسلم- لوجدت أن منها متواترًا لا يرق إليه شك رجلٍ باحثٍ عالمٍ في معنى نقل الحديث! [١].

فمثلًا حديث حنين جذع النخلة شوقًا إلى محمدٍ -صلى الله عليه وسلم- وسماع الصحابة بكاؤه وأنينه حتى ضمّه النبي -صلى الله عليه وسلم- فسكت. فهو حديثٌ متواتر شهده الصحابة الكثر، وأخبر به كما في الصحاح عشرة صحابة مختلفين إلى مئات التابعين فهو في أعلى درجات الصحة [٢].

وحديث لجوء الجمل إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- يشكو إليه تعذيب صاحبه له وعيناه تدمعان حديثٌ متواتر نقله جماعة من الصحابة إلى مئات التابعين [٣].

أما معجزة انشقاق القمر فهي أيضًا من المتواتر، وقد كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يقرأ سورة القمر في المجامع الكبار كالجُمع والأعياد ليُسمع الناس ما فيها من معجزاته -صلى الله عليه وسلم- وكان يستدل بها على صدق نبوته.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: "وقد أجمع المسلمون على وقوع ذلك في زمنه -عليه

---

(١) شروط التواتر التي تتفق العقول على أنها توجب علمًا ضروريًا هي:

أ- عددٌ كثير أحالت العادة تواطؤَهم، أو توافُقَهم، على الكذب.

ب- رووا ذلك عن مثلهم من الابتداءِ إلى الانتهاءِ.

ج- وكان مُسْتَنَدُ انْتِهائِهم الحِسَّ.

ومتى تحققت الشروط الثلاثة تحقق التواتر ولزم منه علم ضروري لا مجال لإنكاره أو لتكذيبه. وهذه شروط عقلية يقتضيها التقصي العقلي للخبر!.

(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض، ص٣٠٦.

(٣) رواه مسلم (٣٤٢)، وأبو داوود (٢٥٤٩)، وأحمد (١٧٤٥)، والحاكم(٢-١٠٩).

الصلاة والسلام- ، وجاءت بذلك الأحاديث المتواترة من طرق متعددة تفيد القطع عند من أحاط بها ونظر فيها"[١] .

وحديث نبع الماء بين أصابعه الشريفة -صلى الله عليه وسلم- هو أيضًا من المتواتر الذي شهده جمعٌ كبيرٌ من الصحابة ونقلوه إلى مئات وآلاف التابعين، فقد توضأ ألف وخمسمائة صحابي وشربوا من الماء الذي نبع بين أصابعه الشريفة -صلى الله عليه وسلم-، وقالوا لو كنا مائة ألفٍ لكفانا[٢] .

وقد روى الحديث جمعٌ غفيرٌ ممن يُحرمون الكذب ويرونه فاحشة فكيف يجتمعون على الكذب في خبرٍ كهذا؟

قال رحمت الله الهندي رحمه الله: " نبع الماء من بين أصابع النبي -صلى اللّه عليه وسلم- في مواطن متعددة، وهذه المعجزة أعظم من تفجر الماء من الحجر كما وقع لموسى -عليه السلام-، فإن ذلك من عادة الحجر في الجملة، وأما من لحمٍ ودم فلم يعهد من غيره -صلى اللّه عليه وسلم-"[٣] .-١٩-

أما تكثير الطعام اليسير ليطعم منه الجيش العظيم فقد جائت به الأخبار المتواترة عن الصحابة فمَن بعدهم. وقد ذكر البخاري وحده هذه الأخبار في خمسة مواضع من صحيحه[٤] .

وتسليم الحجر عليه -صلى الله عليه وسلم- وتسبيح الطعام بين يديه وارتجاف الجبل

---

(١) انظر البداية والنهاية ٣/ ١١٨.

(٢) فتح الباري (١/ ٥٤٠).

(٣) إظهار الحق، رحمت الله الهندي، ص٣١.

(٤) البخاري (١٢١٧)، البخاري (٢٦١٨)، البخاري (٣٥٧٨)، البخاري (٤١٠١)، البخاري (٦٤٥٢). وكلها أحداث ووقائع مختلفة متباينة وهذا في البخاري وحده!.

مهابةً له، هي أخبارٌ رواها الشيخان واتفقوا على صحتها[١].

فكل هذه الأحاديث من المتواتر الذي يُشَك في عقل مكذبه، ويتهم منكره. فما أعلى وثوقية النقل وما أعظم المعجزات التي تقطع بأن نبوته -صلى الله عليه وسلم- على أعلى درجات النبوة.

فالذي يجزم أن عيسى جاء من عند الله أو أن موسى كان نبيًا ثم يكفر بنبوة محمدٍ -صلى الله عليه وسلم- لهو أكذب الخلق!

فأدلة نبوته -صلى الله عليه وسلم- مما تعجز عن جمعه القراطيس وفي كل زمانٍ تنفتح للعلماء أدلة جديدة تُنير دروب المتبّصرين!

---

(١) يقول عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه-: "لقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل". أي بين يدي النبي -صلى الله عليه وسلم-. البخاري (٣٥٧٩).

الفصل الثالث

الظاهرة القرآنية تتحدى الملحدين

"أوجدت الظاهرة القرآنية من الهباء أُمةً ضخمةً واستبقت على القرون جيلًا من الناس ما كانوا ليدخلوا التاريخ أبدًا لولا نهوض هذه الظاهرة بهم"

الظاهرة القرآنية تتحدى الملحدين

لا يوجد كتاب نزّه الخالق وقدّسه وأمر بالتوحيد والتصديق بالرسل وتنزيههم عن كل نقيصةٍ، والحث على الصالحات الباقيات مثل القرآن؛ منذ كانت الدنيا.

فالقرآن منسوجٌ بالتوحيد والنبوات والغيبيات والحِكم والفقه والتشريع والآداب، كل هذا بحبكةٍ لغويةٍ ونسجٍ لم تعهده العرب[1].

وكم من ملايين القناطير المقنطرة من الذهب والفضة دُفعت لمحو القرآن، وإذهاب أثره عن القلوب، وتشتيت أتباعه وتشويه مراده عبر الأزمان، طمعًا أن يُفعل به ما فُعل بالكُتب من قبله.

فبقي رغم كل المحاولات رافعًا أعلامه حافظًا أحكامه.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال:٣٦].

وإذا أنعمت النظر في دين النصارى وجدت أن كل شرائعهم مبدلة محرفة محدثة، فلم يكن المسيح عليه السلام يعرف كنيسةً فضلًا عن أن يبنيها فضلًا عن أن يضع قوانينها، ولم يكن يعرف ناقوسًا ولا صليبًا ولا أسرارًا ولا مطانيات -السجود للقساوسة-، ولا أيقونات -صور قديسين-، ولا مراتب كنسية ولا طقوس كهنوتية. وليس في الإنجيل الذي بين أيدي النصارى اليوم شيءٌ من ذلك!

فهي تشريعات ما أنزل الله بها من سلطان.

---

(١) الفقرة من وحي كتاب: "رسالة خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم، د. ثامر بن ناصر، مكتبة الرشد".

ولو انتقلت إلى التوراة لوجدت أن العمل بها صار من الصعوبة بمكان. حيث شدّد اليهود على أنفسهم فما أطاقوا؛ وطقوس التطّهر والنجاسة عندهم تحتاج إلى قرابين وانعزالية تامة عن الحياة!

وقد تعلقت أحكام التوراة بالهيكل السليماني والمذبح وقد خرِب الهيكل ولا أحد يعرف له مكانًا، وهُدم المذبح وزال أثرهما من الوجود وهذا برهانٌ واضح على نسخ الشريعة.

أما الهندوس الذين يتردون من الجبال ويحرقون الأجساد ويغرقون في الماء من أجل التطهر فلم يبتعدوا كثيرًا عن طقوس اليهود، ولو أراد الله بعباده الهلكة للتطهر ما أذِن لهم في صنعة لبوسٍ لتحصنهم من بأسهم. ولما أوجد لهم سرابيل تقيهم الحر![1].

ولذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "فليس في التوراة ولا الإنجيل مماثلًا لمعاني القرآن:

لا في الحقيقة.

ولا في الكيفية.

ولا الكمية.

بل يظهر التفاوت لكل مَن تدبر القرآن وتدبر الكتب"[2].

فالقرآن رسالة "اليسرى" للأمم؛ يقول الإمام جلال الدين المحلي رحمه الله في تفسيره لقوله تعالى ﴿ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ [الأعلى:٨].

لليسرى أي: للشريعة السهلة وهي الإسلام.

ولو انتقلت إلى معاني القرآن لوجدتها غير محدودةٍ.

وعلومه غير محصورةٍ ولا معدودةٍ.

---

(١) الإعلام بمناقب الإسلام، أبو الحسن العامري، ص١٣٧.

(٢) الجواب الصحيح ٥- ٤٣٥.

فقد اتسع مجاله لكل فن.

يقول الألوسي رحمه الله: "فأنت تجد في كتاب الله أخبارًا وأحكام ومواعظ وأمثال وأخلاق وآداب، وترغيب وترهيب ومدح الأخيار وذم الفجار، وتدبير السياسات ومجادلة الأخصام وإقامة الدلائل على أصول الاعتقاد وإزالة الريب، ووصف الغيب ووصف عوالم الأرض والسماوات، خارجًا بكل ذلك في حسن نظمه عن كل أسلوب فلا هو من الأراجيز البدوية ولا القصائد العربية فكلما تكرر حلا، وسمعته من أي الأفواه غلا مع اقتران معانيه المتغايرة فينقلك من الوعد إلى الوعيد ومن ماضٍ إلى حاضرٍ ومستقبل، ومن حكم إلى جدل، فلا ينبو ولا يتنافر بل تتجانس معانيه في بنيةٍ نظميةٍ بديعة"(١).

وإعجاز القرآن ليس في بلاغته فقط كما يظن الملحدة.

ولا في لفظه فقط.

ولا في معانه فقط.

بل إعجاز القرآن يشمل اللفظ والمعنى والبلاغة، وينتقل إلى العلوم والأحكام والتشريعات وتحليل النفس وسبر أغوارها وإشباع مراداتها.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "فالإعجاز في معناه –القرآن الكريم– أعظم وأكثر من الإعجاز في لفظه، وجميع عقلاء الأمم عاجزون عن الإتيان بمثل معانيه أعظم من عجز العرب عن الإتيان بمثل لفظه"(٢).

وانظر إلى عبارته الأخيرة – رحمه الله– والتي تُسبك بماء الذهب: " وجميع عقلاء الأمم عاجزون عن الإتيان بمثل معانيه أعظم من عجز العرب عن الإتيان بمثل لفظه".

---

(١) الدلائل العقلية/ الألوسي، مخطوط.

(٢) الجواب الصحيح ٥- ٤٣٤.

فالقرآن معجزٌ وإعجازه لا يتوقف؛ فهو معجزٌ بلفظه ومعناه ومعارفه وفنونه وعلومه.

ولم يقدر أحد من العرب أن يأتى بمثله في لفظه ولا غير العرب في معانيه.

وعدم الفعل مع كمال الداعي يستلزم عدم القدرة.

أما إعجاز القرآن البلاغي فلأنه:

جاء بأفصح الألفاظ.

في أحسن نظوم التأليف.

مضمنًا أصح المعاني.

فاللفظة الواحدة من القرآن لو أخذتها وأدرت لغة العرب كله لتحصل على لفظةٍ أحسن منها ما استطعت(١).

ولو أردت أن تؤلف بكلماتٍ أخرى غير كلمات القرآن لتوازي حسن تأليفه وحبكته ورونقه لشهدت له بالنصر وعلى نفسك بالعجز.

انظر إيجاز اللفظ مع دقة المعاني وكثرتها وتلاؤم الكلام في قوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [هود:٤٤].

وانظر إلى الإيجاز القرآني المعجز في قوله تعالى ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾ [الصافات:١٠٣].

وتفسير الآية: (فلما أسلما) خضعا وانقادا لأمر الله تعالى (وتله للجبين) صرعه عليه ولكل إنسان جبينان بينهما الجبهة وكان ذلك بمعنى وأمر السكين على حلقه فلم تعمل شيئا بمانع من القدرة الإلهية(٢).

---

(١) الفقرة من وحي "رسالة خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم"؛ م. س.

(٢) تفسير الجلالين للآية.

هل تستطيع أن تأتي بهذا المعنى المطلوب بنفس هذا العدد من الكلمات في إطار حبكةٍ بلاغية لا تنبو عن سير الآيات قبلها وبعدها؟

ولو انتقلت عن لغة العرب وأردت أن تترجم كلمة مثل " أنلزمكموها" في قوله تعالى ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴾ [هود:٢٨].

فأنت تترجمها بعد أن تتفكك ويخفت رونقها إلى سبع كلماتٍ بالإنجليزية Shall we compel you to accept it.

وحبكة اللفظ القرآني واستيعابه للمعنى التام مما سارت بأمثاله الركبان. أنظر إلى كلمة " فأسقيناكموه" في قوله تعالى ﴿ وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَسۡقَيۡنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمۡ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴾ [الحجر:٢٢].

لفظة واحدة بها حرف عطف، وفعل وفاعل، ومفعول أول ومفعول ثانٍ.

ولذا عندما سمع العرب الأقحاح كتاب الله عز وجل خطف أسماعهم بقوة تأثيره ورقراق بلاغته؛ فعن جبير بن مطعم عن أبيه حين سمع قوله تعالى: ﴿ أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمۡ هُمُ ٱلۡمُصَۜيۡطِرُونَ ﴾ [الطور: ٣٥-٣٧].

قال: كاد قلبي أن يطير! [(١)].

إن كل هذا ليقطع بأن الظاهرة القرآنية ما جائت إلا لتتحدى وتهدي وتُصلح!

لم يزل القرآن يقرع المشركين البلغاء أشد التقريع، ويُسفه أحلامهم، ويذم آلهتهم، ويتحداهم أن يأتوا بمثله أو بسورةٍ من مثله، وهم في كل هذا ناكصون عن معارضته، محجمون

(١) صحيح البخاري، ٤٥٠١.

عن مماثلته.

بل لقد قال الله عز وجل للمشركين: ﴿ لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ ﴾ [البقرة:٢٤].

فما فعلوا، ولا قدروا.

ومن تعاطى ذلك من سخفائهم كمسيلمة كُشف عواره لجميعهم، فقد ولوا عنه مدبرين[(١)].

وللإنسان أن يتسائل: كيف يجرؤ رجلٌ أن يتحدى أناس في جنس ما يحسنون ويبدعون، ثم يتركهم على مضي السنين وقد علاهم الوجيب والخزي والسكون؟

يقول د. عبد الله دراز رحمه الله: "ألم يكن يخشى الرسول -صلى الله عليه وسلم- بهذا التحدي أن يثير حميتهم الأدبية؟

فيهبوا لمنافسته وهم جميعٌ حذرون؛ وماذا عساه يصنع لو أن جماعة من بلغائهم تعاقدوا على أن يضع أحدهم صيغة المعارضة، ثم يتناولها سائرهم بالإصلاح والتهذيب كما كانوا يصنعون في نقد الشعر، فيكمل ثانيهم ما نقصه أولهم، وهكذا.

حتى يُخرجوا كلامًا إن لم يبزه فلا أقل من أن يساميَه ولو في بعض نواحيه!

ثم لو طوعت له نفسه أن يصدر هذا الحكم على أهل عصره فكيف يصدره على الأجيال القادمة إلى يوم القيامة، بل على الإنس والجن؟

إن هذه مغامرة لا يتقدم إليها رجلٌ يعرف قدر نفسه إلا وهو مالئٌ يديه من تصاريف القضاء، وخبر السماء، وهكذا رماها بين أظهر العالم، فكانت هي القضاء المبرم، فلم يهم بمعارضته إلا باء بالعجز الواضح، والفشل الفاضح، على مر العصور والدهور"[(٢)].

فتحدى القرآن أهل البيان في عباراتٍ محرجة، أن يأتوا بمثله أو بسورةٍ منه، فما فعلوا.

---

(١) الفقرة من وحي كتاب " الشفا للقاضي عياض ١-٣٦٥ " بكثير من التصرف.

(٢) النبأ العظيم، د. عبد الله دراز رحمه الله، ص٤٤-٤٥.

فلم يأت العرب جميعًا ولا الأمم التي نُقل لها التحدي بشيءٍ يستريح له الملحدة ويريحون به غيرهم!

يقول الألوسي رحمه الله: "فلم ينطق أحد منهم إلى يومنا هذا ببنت شفه ولا أعرب عن موصوفٍ أو صفة، وأظهر الكل العجز عن المعارضة في كل وقتٍ وحين، بل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين!

فكأن محمدًا صلى الله عليه وسلم موجودٌ كل عصرٍ بين أظهرنا والوحي غير منقطعٍ منا، لأن دليل نبوته وحجته يُذكِّر الناس بصحة نبوته في سائر الأقطار آناء الليل وأطراف النهار "[(١)].

فقد رأى هؤلاء الذين يتحداهم القرآن أنّ تجميع الجيوش وتحزيب الأحزاب لمحاربة رسول الله صلى الله عليه وسلم أهون وأيسر من معارضة القرآن وقبول التحدي.

فهذا بالغ جهدهم ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ [فصلت:٢٦].

وعندما قدِم طفيل بن عمرو الدوسي وكان شاعرًا مفوهًا –ورئيس قبيلة دوس في اليمن–، عندما قدم مكة استقبله أهل مكة وكعادتهم حذّروه من سماع قرآن محمد –صلى الله عليه وسلم– لئلا ينجذب لسحره، حتى حشا أذنه الكرسف– القطن– حين جاء إلى المسجد الحرام.

لكن يبدو أنه وقع في نفسه شيء من هذه الطريقة السخيفة، فقال في نفسه: إني لبيبٌ وشاعر ولا يخفى عليّ الحسن من القبيح، فأزال الكرسف عن أذنه وسمع شيء من القرآن فتملك عليه قلبه وأسلم وشهد لله شهادة الحق.

وعاد إلى قومه يدعوهم إلى الإسلام وفي طريق عودته خرج نورٌ من سوطه فدخل به بلده وأسلم أهله، وأسلم قريبًا من ثمانين بيتٍ من قومه، وهم الذين لحقوا برسول الله –صلى الله

---

(١) الدلائل العقلية، الألوسي. مخطوط!.

عليه وسلم- فيما بعد في المدينة[(١)].

فأثر القرآن في الفِطر والأنفس عجيب، فالقرآن يُذيب جبال الغِلظة ويشرح الصدور في توِهِ ويخطف الألباب في نحوهِ ولفظهِ.

وقد كان نساء المشركين وأطفالهم يتقصفون -يزدحمون- حول بيت أبي بكرٍ في بداية الدعوة حين يقرأ القرآن من فرط انجذابهم وتأثرهم.

روى البخاري في صحيحه: "ثم بدا لأبي بكر فابتنى مسجدًا بفناء داره وبرز فكان يصلي فيه ويقرأ القرآن، فيتقصّف عليه نساء المشركين وأبناؤهم يعجبون وينظرون إليه، وكان أبو بكر رجلًا بكاءً لا يملك دمعه حين يقرأ القرآن، فأفزع ذلك أشراف قريشٍ من المشركين"[(٢)].

فسطوة القرآن على القلوب عجيبة فهو يزرع اليقين في القلب الصدِأ ويغرس الإيمان في الكافر الحنِق.

وقد نبهنا الله تعالى إلى هذه الحقيقة وأمرنا أن نستغل سطوة القرآن على القلوب. فأخبرنا أن الكافر في قلب معمعة القتال واشتداد رحى السيوف قد يرجى منه خيرٌ حين يستمع القرآن ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة:٦].

سبحان الله!

كف ينكسر كافر في لحظة احتدام قتالٍ لصوت كتاب عدوه؟

إنها أسرار القرآن!

وكم من عدوٍ لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- أراد اغتياله فما أن سمع آيات القرآن حتى انفطر قلبه وتشدق الإيمان من عينيه!

---

(١) دلائل النبوة للأصبهاني ١/ ٣١٢ سيرة ابن هشام ١/ ٣٨٢.

(٢) البخاري: ٢٢٩٧.

فللقرآن سلطانٌ قاهرٌ على النفوس ولا يزال غضًا طريًا على كثرة الترداد مع ما فيه من قوانين وتشريعات، وهو الأنيس في الخلوات وتهفو إليه النفوس في الأزمات ويزيل الوحشة عن أي مكانٍ وُجد فيه.

﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ [الزمر:٢٣].

فتستبشر لكتاب الله النفوس وتنشرح له الصدور حتى إذا أخذت حظها منه عادت مرتاعة قد عراها الوجيب والقلق(١).

ولما سمع الوليد بن المغيرة من النبي –صلى الله عليه وسلم– قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل:٩٠].

قال: " والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أسفله لمغدق وإن أعلاه لمثمر وما هو بقول بشر". فقد رقّ قلبه وقال والله ما يشبه الذي نقول شيئًا من هذا.

ولذا اجتمعت كلمة وفود العرب على ألا يسمعوا للقرآن ولا يُسمِعوه أهليهم، فهذا هو السبيل الوحيد لمقاومة التحدي بمثل هذا القرآن، فأنى للعرب أن يتحدوا كتابًا جاء بأفصح ما تسمو إليه لغة العرب في جزالتها ودقة أوضاعها وإحكام نظمها واجتماعها.

كل هذا والنبي محمد–صلى الله عليه وسلم– كان أميًا لا يعرف القراءة والكتابة.

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ﴾ [العنكبوت:٤٨].

وللمتدبر أن يسأل: أنى لمحمدٍ –صلى الله عليه وسلم– أن يضع مثل هذا الكتاب الذي

---

(١) الفقرة من وحي كتاب"رسالة خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم، د. ثامر بن ناصر، مكتبة الرشد".

حوى أخبار الأولين وتاريخ الأقدمين؟

وأنى له أن يسبك عبارات القرآن ويلقيها لكتبة الوحي بلا إعادة ضبطٍ وتقنين؟

وأنى له أن يُصلح بها مسالك وضروب ما نزلت بسببه؟

وأنى له بعد أن تنزل آيات الله لتضبط نازلة أو تصحح الحُكم في واقعة، إذا به -صلى الله عليه وسلم- يأمر كتبة الوحي أن يضعوا هذه الآيات في سورة كذا بين كذا وكذا. فتأتي في موضعها بين سابقها وتاليها من الآيات دون أن تنبو معهم أو تتنافر عنهم، بل وكأنها نزلت في جملتهم ولحمتهم؟[(١)].

فسبحان الله!

---

(١) أشار د.عبد الله دراز رحمه الله إلى هذه القضية المذهلة في كتابه مدخل إلى القرآن الكريم؛ فقال: " في وقت نزول القرآن كانت بعض المواضيع تتزايد بمعزل عن مواضيع أُخرى، وتُكوِّن تدريجيًا وحدات مُستقلة بعد أن تنضم إليها آيات أُخرى نزلت بعدها، وأن بعضها كانت تُضاف هنا، والأُخرى تتداخل مع غيرها هناك، بحسب أمر الرسول -صلى الله عليه وسلم- الذي كان يتلقاه بدوره من الروح القدس.

فإذا أخذنا في اعتبارنا التواريخ التي لا حصر لها - تواريخ نزول آيات القرآن الكريم- والتفتيت المتناهي في نزول الآيات، ولاحظنا أن هذا الوحي كان بوجهٍ عام مرتبطًا بظروف ومناسبات خاصة، فإن ذلك يدعونا إلى التساؤل عن الوقت الذي تمت فيه عملية تنظيم كل سورة على شكل وحدة مستقلة.

وكأن القرآن كان قطعًا متفرقة ومرقمة من بناء قديم، كان يُراد إعادة بناؤه في مكان آخر على نفس هيئته السابقة، وإلا فكيف يمكن تفسير هذا الترتيب الفوري والمنهجي في آنٍ واحد، فيما يتعلق بكثير من السور؟

ولكن أي ضمان تاريخي يستطيع أن يتحصل عليه الإنسان عند وضع مثل هذه الخطة إزاء الأحداث المستقبلة، ومتطلباتها التشريعية، والحلول المنشودة لها، فضلًا عن الشكل اللغوي الذي يجب أن تُقدم به هذه الحلول، وتوافقها الأُسلوبي مع هذه السورة بدلًا من تلك؟

ألا نستنتج ان اكتمال هذه الخطة وتحققها بالصورة المرجوة، يتطلب تدخلًا من قوة عظمى ، تتوفر فيها القدرة على إقامة هذا التنسيق المنشود؟" انتهى -بتصرف-.

لم تكن الظاهرة القرآنية مرغمة ببلاغتها فحسب، ولا مرغمة ببيانها لأصول الدين ومعتقد الأنبياء الأسبقين فقط، ولا توقفت على إصلاح تحريف المفترين.

وإنما الظاهرة القرآنية تتخطى كل ذلك. وتتجاوز ما كُتب عنها وانفتحت له عقول الأولياء من مهج الإعجازات المتضمَنة في الكتاب.

فأنت تقرأ في كتاب الله مغيباتٍ تحدث دون أن تتخلف.

وأخبار أقوامٍ لا يزيد بحث الزمان وتحريه إلا تصديقًا لوقوعها.

وتقرأ تحليلًا بديعًا لطبائع الأنفس وأهوائها وميولها وما يصدها ويردعها ويعيدها.

فتجد عبر سبك الأيام وخبراته وتراكم مشاهدة أحوال الناس تحقيقًا لكل ذلك!

ولو أردنا الشروع في بسط كل عجيبةٍ أتى بها القرآن لما كفانا الزمان.

نسأل الله أن يصفح عن العجز والتقصير. لكن عذرنا أن لمحة تُرشد لتقصٍ. ونفحةً تُهيئ لتدّبر. ومقدمةً تشد الهمم لمن يُكمل.

فاللهم اغفر وارحم!

وحسبنا هنا أن نرصد شيئًا آخر عرضته الظاهرة القرآنية بسلاسةٍ. وجاء هذا الشيء تضمينًا لا قصدًا لتحدٍ ولا إظهارًا لمعجز.

فقد عرضت الظاهرة القرآنية موت أناسٍ بأعيانهم على الكفر:

فحدث ذلك دون أن يُسلم منهم أحد. ولو أن واحدًا منهم أسلم لانتهت الرسالة من فورها!

ومن هؤلاء:

أبو لهب ﴿ سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ﴾ [المسد:٣] .

والوليد بن المغيرة ﴿ سَأُصۡلِيهِ سَقَرَ﴾ [المدثر:٢٦].

بل إن الظاهرة القرآنية أخبرت بأن الوليد ابن المغيرة قد رُزق ببنين كُثر وأنه يطمع في

المزيد. لكن كلا!

﴿ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴾ [المدثر: ١٢-١٥].

يقول البغوي رحمه الله في- تفسير الآية: "فما زال الوليد بعد نـزول هذه الآية في نقصانٍ من ماله وولده حتى هلك".

وأخبر القرآن أن شدة عناد الوليد ابن المغيرة وبسبب منعه الخير وكثرة إثمه وافتراءه على آيات الله عز وجل. بسبب كل ذلك سيُخطم بالسيف على أنفه فيُعرف بذلك!

﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴾ [القلم: ١٢-١٦].

قال ابن عباس: وقد فُعل ذلك يوم بدر -خُطِم على أنفه بالسيف-(١).

بل لقد انتقلت الظاهرة القرآنية إلى منحىً آخر عظيمًا. إذ أكدت منذ بداية الدعوة أن هناك سجالًا حربيًا سيجري بين حزب محمد -صلى الله عليه وسلم- وحزب مشركي قريش.

وهذا قطْع إعجازي بأن قريش لن تُسلم بسهولةٍ ويسر كما ستسلم المدن البعيدة كيثرب وعمان واليمن والبحرين.

بل ثمة سجالات وسجالات ستجري. كل هذا في بدايات الدعوة. ولا أحد يستطيع التنبؤ بما سيكون بعد ساعات فضلًا عن عقودٍ من الزمان.

فقد قال الله تعالى مخبرًا عن هزيمة قريش قبل الهجرة ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾ [القمر:٤٥].

بل لقد تكررت هذه الآيات وهذا الوعيد في أغلب السور التي نزلت في بداية الدعوة.

قال الله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا

---

(١) انظر تفسير البغوي للآية.

وَأَضْعَفُ جُندًا ﴾ [مريم:٧٥].

أي سيهلك كفار قريش في معارك فاصلة ومن يموت منهم قبل ذلك فالساعة موعده.

أيُ استشرافٍ للمستقبل هذا الذي يقطع بأن عناد هؤلاء سيطول حتى تكون الحرب؟

أي استشرافٍ للمستقبل هذا الذي يضع الدعوة ككل تحت مقصلة نبوءةٍ لو أسلم سادات قريش في الحقبة المكية لسقطت النبوءة وانتهت الدعوة؟

وكم من بوادي العرب وكم من القرى أسلمت سلمًا ودون حرب وفي يومٍ وليلة؟

ماذا لو استيقظ كفار قريش وساداتهم وأعلنوا إسلامهم؟

تخيل!

ثم انظر كيف جهّز كفار قريشٍ الجيوش وعادوا القبائل ودفعوا أنفس أموالهم ورجالهم لمحاربة الدعوة الناشئة، ولم يتفطنوا لمسألةٍ كهذه -إظهار أنهم أسلموا كذبًا- تريحهم وتريح أبنائهم أبد دهرهم؟

فإذا لم يكن القرآن موحىً به من عند الله فأي تأويلٍ آخر يمكن أن يطرحه الإنسان المتعقل لثقة النبي صلى الله عليه وسلم بما سيحدث في مقبل الأيام؟

أيضًا تحدت الظاهرة القرآنية اليهود أن يتمنوا الموت فلم يفعلوا ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الجمعة: ٦-٧].

فما تمنوا الموت أبدًا -لأنهم يعلمون أنهم لو تمنّوه لماتوا من ساعتهم- مع الاقتضاء والمطالبة التي تدفع لجواب التحدي.

يقول القاضي عبد الجبار: "لا يتمنون ذلك مع خفته وسهولته ومع علمه -صلى الله عليه وسلم- بشدة حرصهم على تكذيبه وفضيحته تعجب؟

ولم يقل هذا من عندي بل قال هذا من عند ربي وإلهي وإلهكم الذي يعلم سركم وجهركم، وهذا أشد على اليهود من تحديه للعرب بمثل القرآن، وهذا مقام لا يبديه النبي صلى الله عليه وسلم إلا مع اليقين.

وقد تحيرت الملحدة وأعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم لماذا لم يتمنَ اليهود الموت زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيُكذبوه بذلك فيستريحون ويُريحون"(١).

وأخبر القرآن بالانتصار يوم بدر قبل أن تبدأ المعركة والحسابات المادية في صالح الكفار قولًا واحدًا ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال:١٢].

يقول الشيخ السعدي رحمه الله في تفسيره للآية: " وهذا خطاب... للمؤمنين يشجعهم اللّه، ويعلمهم كيف يقتلون المشركين".

وأخبر القرآن أن المنافقين سيكذبون على يهود بني النضير ولن ينصروهم، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ [الحشر: ١١-١٢].

وحدث ما أخبر به فإن يهود بني النضير أُخرجوا ولم يخرج المنافقون لنصرتهم بل تركوهم؛ وقوتلوا فلم ينصروهم.

ففي النهاية واجه يهود بني النضير وحدهم مصير خيانتهم ولم يتلقّوا أي عونٍ من المنافقين!

وكانت هذه بشارة -من القرآن الكريم- مستقلة بنفسها كما يقول ابن كثير رحمه الله في تفسير الآية.

وتنبأ القرآن بهزيمة الفرس وانتصار الروم في بضع سنين؛ قال الله تعالى: ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ

---

(١) تثبيت دلائل النبوة، القاضي عبد الجبار ٢-٤١١ بتصرف.

﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الروم: ٤-٥].

مع أن التاريخ في ذلك الوقت كان يكتب نهاية إمبراطورية الروم. وقد سحقت حملات أبرويز الفارسية كل أمل للروم في النصر حتى أخذ أبرويز صليب الصلبوت إهانةً للروم!

ومع ذلك وفي لحظة تاريخية فاصلة يفيق هرقل وينتصر على أبرويز في معركة فاصلة وتتحقق الآية والمعجزة![١]

وأخبر القرآن أنه في يوم نصر الروم على الفرس سينتصر المسلمون أيضًا ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٤-٥].

وبالفعل فقد جائت أخبار نصر الروم في غزوة بدرٍ الكبرى![٢]

وأثلج القرآن صدور الصحابة الكرام وطمأن قلوبهم بأنهم سيدخلون المسجد الحرام. وذلك بعد أن صدّهم المشركون عن البيت. قال الله تعالى: ﴿لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّۖ لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمۡ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَۖ فَعَلِمَ مَا لَمۡ تَعۡلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتۡحٗا قَرِيبًا﴾ [الفتح:٢٧].

يصف د.عبد الله دراز رحمه الله الحدث العجيب كالتالي: "مُنع المسلمون من دخول مكة عام الحديبية، واشترطت عليهم قريش إذا جاءوا في العام المقبل أن يدخلوها عزلًا من كل سلاح إلا السيوف في القُرُب، فهل كان لهم أن يثقوا بوفاء المشركين بعقدهم وقد بلوا منهم نكث العهود وقطع الأرحام وانتهاك شعائر الله؟ أليسوا اليوم يحبسون هديهم أن يبلغ محله؟ فماذا هم

---

(١) http://www.angelfire.com/nt/Gilgamesh/sasanian.html

ولترجمة هذا الحدث العظيم إلى العربية يُنظر الرابط التالي: https://goo.gl/GWGDyr

(٢) يُراجع تفسير البغوي للآية.

صانعون غدًا؟ على أنهم لو صدقوا في تمكين المسلمين من الدخول فكيف يأمن المسلمون جانبهم إذا دخلوا عليهم دارهم مجردين من دروعهم وقوتهم، ألا تكون هذه مكيدة يراد منها استدراجهم إلى الفخ؟ وآية ذلك اشتراط تجردهم من السلاح إلا السيف في القراب، وهو سلاح قد يطمئن به المسلمون إلى أنهم لن ينالوهم بأيديهم ورماحهم، ولكنه لا يأمنون معه أن ينالوهم بسهامهم ونبالهم، في هذه الظروف المريبة يجيئهم الوعد الجازم بالأمور الثلاثة مجتمعة: الدخول، والأمن، وقضاء الشعيرة ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾ [الفتح:٢٧] فدخلوها في عمرة القضاء آمنين، ولبثوا فيها ثلاثة أيام حتى أتموا عمرتهم وقضوا مناسكهم"[١].

وتنبأ القرآن بأنه سيأتي اليوم الذي يظهر فيه الإسلام على كل الديانات؛ قال الله تعالى ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة:٣٣].

فجاء ذلك اليوم وظهر الإسلام على الدين كله!

بل إنه في اللحظات التي كانت تعاني فيها الدعوة الأمرين. تقرر أن الإسلام سيبقى إلى قيام الساعة ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾ [الروم:٥٦].

وبيّن القرآن أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– سيعود إلى مكة بعد خروجه منها مهاجرًا ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص:٨٥].

ومعاد الرجل هي بلده.

وأن الله عز وجل سوف يغني قريشًا ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [التوبة:٢٨].

وقد كان كل هذا!

وغير ذلك الشيء الكثير!

---

(١) النبأ العظيم، ص٤٨–٤٩.

إن ظاهرة الإخبار القرآني للمغيبات التي تأتي بسلاسةٍ وتقع كما أخبر لهي تقطع في كل جانبٍ من جوانبها بصدق صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم.

الظاهرة القرآنية هي الظاهرة المستحيلة!

مستحيلة التكرار.

مستحيلة التحدي.

مستحيلة المقابلة.

مستحيلة المقارنة بغيرها.

ومجرد إتيان الرسول -صلى الله عليه وسلم- الأمي بهذا الكتاب في دلائله وتشريعاته ومعجزاته وبيانه لمن أكبر الآيات على صدقه.

ثم عجْز المشركين عن معارضته أو حتى مجاراته؛ ثم إصلاح هذا الكتاب لأكبر مشكلتين في الوجود وهما "المعرفة والسلوك" مع المحافظة على النسق البياني البلاغي البديع؛ ومطابقة كل أمرٍ ونهيٍ في الكتاب للعدل والميزان والفطرة ومنهج الأنبياء قبله؛ لهي حججٌ بعضها فوق بعض لمن تدّبر.

وقد أوجدت الظاهرة القرآنية من الهباء أُمةً ضخمةً واستبقت على القرون جيلًا من الناس ما كانوا ليدخلوا التاريخ أبدًا لولا نهوض هذه الظاهرة بهم!

وقد تقررت هذه الحقيقة في اللحظات التي كانت فيها الدعوة على المحك ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف:٤٤].

ولم يستطع ملاحدة العصر أن يواجهوا الظاهرة القرآنية إلا بسخافاتٍ، كان صمتهم أفضل وأكثر تعقلًا من التصريح بها!

ومن هذه السخافات: زعم بعضهم أن النبي صلى الله عليه وسلم تلقى القرآن من حدّادٍ

نصراني مشتغلٍ في الحدادة، منهمك في مطرقته لا يعلم الكتاب إلا أماني، لسانه أعجمي.

وقال آخرون: ربما نقله من بحيرا الراهب حين قابله وهو طفل.

فيا له من منطقٍ كان السكوت أستر لهم!

ويأتي زعم آخر أن القرآن من حديث نفس محمدٍ -صلى الله عليه وسلم- حيث أفاضت نفسه هذه المعارف، ويرد د.عبد الله دراز رحمه الله على هذا الادعاء المضحك فيقول: "نعم؛ إنها لعجيبة حقًّا: رجلٌ أمي بين أظهر قومٍ أميين، يحضر مشاهدهم -في غير الباطل والفجور- ويعيش معيشتهم مشغولًا برزق نفسه وزوجه وأولاده، راعيًا بالأجر، أو تاجرًا بالأجر، لا صلة له بالعلم والعلماء؛ يقضي في هذا المستوى أكثر من أربعين سنة من عمره، ثم يطلع علينا فيما بين عشيةٍ وضحاها فيكلمنا بما لا عهد له به في سالف حياته، وربما لم يتحدث إلى أحدٍ بحرفٍ واحد منه قبل ذلك، ويبدي لنا من أخبار تلك القرون الأولى مما أخفاه أهل العلم في دفاترهم وقماطرهم.

أفي مثل هذا يقول الجاهلون: إنه استوحى عقله واستلهم ضميره؟

أي منطقٍ يسوغ أن يكون هذا الطور الجديد العلمي نتيجة طبيعية لتلك الحياة الماضية الأمية؟

إنه لا مناص في قضية العقل من أن يكون لهذا الانتقال الطفري سرٌ آخر يلتمس خارجًا عن حدود النفس وعن دائرة المعلومات القديمة.

وإن ملاحدة الجاهلية وهم أجلاف الأعراب في البادية كانوا في الجملة أصدق تعليلًا لهذه الظاهرة وأقرب فهمًا لهذا السر من ملاحدة هذا العصر، إذ لم يقولوا كما قال هؤلاء: إنه استقى هذه الأخبار من وحي نفسه، بل قالوا: إنه لا بد أن تكون قد أمليت عليه منذ يومئذٍ علومٌ جديدة، فدرس منها ما لم يكن قد درس، وتعلم ما لم يكن يعلم ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام:١٠٥].

ولقد صدقوا؛ فإنه درسها، ولكن على أستاذه الروح الأمين، واكتتبها، ولكن من صحفٍ

مكرمةٍ مرفوعةٍ مطهرةٍ، بأيدي سفرة، كرامٍ بررة.

﴿ قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ [يونس:١٦].

ذلك شأن ما في القرآن من الأنباء التاريخية، لا جدال في أن سبيلها النقل لا العقل، وأنها تجيء من خارج النفس لا من داخلها"[١].

والظاهرة القرآنية بُعيد كل هذا هي في استقلالٍ تام عن ذات موضوع النبي –صلى الله عليه وسلم–، فالنبي –صلى الله عليه وسلم– يتعرض لنكباتٍ ونكبات –مثل موت خديجة وعمه أبي طالب–، ولا نجد لذلك أثرًا في القرآن.

أيضًا لا نجد أسماء زوجاته في القرآن الكريم مع تعلقه بخديجة إلى آخر لحظةٍ في حياته؛ وفي المقابل نجد اسم السيدة مريم تكرر قرابة ٣٤ مرة.

وأيضًا لو نظرت إلى المجاز القرآني لوجدته بعيدًا تمامًا عن خيال العربي الذي ينشد في معلقاته وأشعاره الغزل ووصف المرأة والخمر، فالمجاز القرآني لوحة شاملة رائعة تختلط فيها الأنهار التي تجري في المروج الخضر مع الظلمات التي في البحار اللجية.

وداخل هذه الوحدة الأدبية تتوافر الدقة العلمية والدقة المعرفية لأنه كتابٌ موحىً به من خالق السماء والأرض.

وفي إطار حديثنا عن الدقة العلمية. فالقرآن الكريم هو الكتاب المقدس الوحيد على وجه الأرض الذي يخلو من خطأ علمي واحد وهذا بحد ذاته أعظم إعجاز علمي على الإطلاق.

في المقابل أعطني كتيب أو مطوية صغيرة مكتوبة منذ مائتي عام فقط تصف أية مسألةٍ علمية وسأُخرج لك منها أخطاء صريحة.

---

(١) النبأ العظيم، د.عبد الله دراز، ص٤٠.

فقد كَتب أرسطو ثلاثة كتب علمية "في الطبيعيات، في السماوات، في الأرض" هذه الكتب الثلاثة لا توجد اليوم فيها جملة واحدة صحيحة علميًا، فقد كان أرسطو طبقًا لهذه الكتب يرى أن:

أسنان المرأة تختلف في العدد عن أسنان الرجل!

وأنه يوجد في صدر المرأة ثلاثة ضلوع فقط!

وأن وظيفة المخ تبريد الدم بينما وظيفة القلب تسخينه![١]

وكان أرسطو يرى أن المياه الجوفية تتكون نتيجة فجوة في قلب الأرض تنقل مياه المحيط إليها!

وما إلى ذلك من الخرافات العلمية التي تملأ كتبه. بينما يقول القرآن في هذه المسألة الأخيرة مثلاُ –تكّون المياه الجوفية– خلاصة ما توصل له العلم منذ عقودٍ قليلة فقط، وهو أن المياه الجوفية مصدرها مياه الأمطار ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الزمر:٢١].

فمصدر الميـاه الجوفيه هو الينابيع المتكونة من الأمطـار، وليس فجوة أرسطو التي في عمق القارة.

فمعجزة الضبط العلمي للقرآن الكريم هي أعظم معجزة علمية على الإطلاق!

وطبقا للمبدأ البوكيلي Bucaillism – الذي قام بصكه موريس بوكاي منذ عقودٍ قليلة– فإن القرآن الكريم بعد مراجعة علمية دقيقة هو الكتاب الوحيد الذي لا يوجد به خطـأ علمي واحد رغم أن عمره ١٤٠٠ عام[٢].

مع أن القرآن كتاب إصلاح للمعرفة والسلوك في المقام الأول.

---

(١) http://chsi.harvard.edu/bok/٠٦.html.

(٢) Bucaillism at Wikipedia.

ولو ترّحلت عن القرآن الكريم إلى غيره من الكتب فأنعمت النظر في منحى الدقة العلمية في تلك الكتب. لوجدت نصوصًا تقطع بالوضع -التحريف- في تلكم الكتب!

فلك أن تتخيل! لو أن نصًا واحدًا من كتاب مثل الفيدا - الكتاب المقدس للهندوس- كان موجودًا في كتاب الله ؟

وسأعرض الآن بين يديك شيئًا من نصوص كتب الأسبقين:

- تقول الفيدا أن: الأرض ثابتة لا تتحرك[١].
- وخلق الله الأرض ثابتة[٢].
- والشمس تدور حول الأرض داخل عربة ذهبية يقودها سبعة أحصنة[٣].
- والثور يُثبت السماء[٤].

والياجور فيدا هي أحد الكتب الأربعة القانونية المقدسة لدى الهندوس

- ويقول الفيشنو بارانا أن الشمس تبتعد عن الأرض ٨٠٠ ألف ميل، بينما المسافة علميًا ٩٣ مليون ميل.
- ويقول الآثارفا فيدا: وفي خضم الماء يدور القمر[٥].

وغيرها الكثير؛ فالحمد لله على الدين الخاتم المعصوم المحفوظ، الذي بلغه لنا أشرف الخلق محمدًا صلى الله عليه وسلم، كاملًا غير منقوص.

---

(١) الريج فيدا ١ ١٢.

(٢) ياجور فيدا ٣٠.

(٣) ياجور فيدا ٣٣-٤٣.

(٤) ياجور فيدا ٣٠.

(٥) آثار فيدا ١ ٨٩.

ولو نظرنا إلى تقرير الظاهرة القرآنية لجانب العقيدة والتوحيد. فالقرآن هو منتهى الرقي في تنقية العقيدة التوحيدية من أية شوائب كفرية؛ يقول د.الطيب بو عزة: "يؤكد القرآن دائمًا دور الكتب المقدسة في المسألة التوحيدية، ومع ذلك يؤكد القرآن دائمًا على إخراج الذات الإلهية من نطاق الأنانية اليهودية – حيث الرب القومي لليهود –، والتعدد المسيحي – حيث عقيدة الثالوث الموغلة في التشويش والارتياب –، فالله ربُّ العالمين واحدٌ أحدٌ ليس كمثله شيءٌ وهو السميع البصير، ولذا فقد خرجت التعديلات اللاهوتية اللاحقة على اليهودية والمسيحية على يد توما الاكويني وموسى بن ميمون كإفراز لقراءتهم المنشور الإسلامي في عقيدته الصافية بالله، والتي شوهتها معاصي اليهود والمسيحيين، فحاول الرجلان تنسيق ديانتيهما بما يتناسب مع المنشور الجديد الذي سيجذب كل أتباع الديانات إليه إذا لم يحدث تدخل سريع لمواربة الصدع ومحاولة التقرب من عقيدة الإسلام النقية، وإثبات أن كلتا العقيدتين الأخريتين بناؤهما الأصلى وعمادهما أيضًا على توحيد الله في الصيغة النهائية، فالتحسينات التي أُدخلت على العقيدتين لم يكن منها مناص لإيقاف أفواج الداخلين في الدين الجديد"(١) .

وفي الختام هل تبقى دعوى لمدعٍ أن القرآن من صنع محمدٍ –صلى الله عليه وسلم–؟

يقول دكتور محمد عبد الله دراز –رحمه الله–: "القرآن إذن صريح في أنه لا صنعة فيه لمحمدٍ – صلى الله عليه وسلم– ولا لأحدٍ من الخلق، وإنما هو منزلٌ من عند الله بلفظه ومعناه ومن العجب أن يبقى بعضُ الناس في حاجةٍ إلى الاستدلال على الشطر الأول من هذه المسألة وهو أنه ليس من عند محمد .

في الحق أن هذه القضية لو وجدت قاضيًا يقضي بالعدل لاكتفى بسماع هذه الشهادة التي جاءت بلسان صاحبها على نفسه.

وأي مصلحةٍ للعاقل الذي يدَّعي لنفسه حق الزعامة ويتحدى الناس بالأعاجيب والمعجزات لتأييد تلك الزعامة، أي مصلحةٍ له كي ينسب بضاعته لغيره ولو انتحلها لما وجد من

(١) من وحي بعض مقالات د. الطيب بو عزة على منتدى التوحيد –بتصرف–.

البشر أحدًا يعارضه ويزعمها لنفسه؟

بل وشهد الرسول -صلى الله عليه وسلم- على نفسه بالعجز ﴿ قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرًا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ [يونس:١٦]"[(١)].

إنها قضية عادلة، قضية محايدة، قضية يقتضيها العقل والمنطق ألا وهي: التسليم بأن القرآن الكريم موحىً به من عند الله سبحانه.

(١) النبأ العظيم ص ٢١.

الفهرس